محمد عدنان سالم

هموم ناشر عربي..

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

هموم
ناشر عربى..

الكتـــاب ٩٩٥
الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ = ١٩٩٤م .

سورية ـ دمشق ـ برامكة مقابل مركز
الانطلاق الموحد ـ ص .ب (٩٦٢)
برقياً : فكر ـ س .ت ٢٧٥٤
هاتف ٢٢٣٩٧١٧ ، ٢٢١١١٦٦
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
تلكس FKR 411745 sy
الصف التصويري : دار الفكر بدمشق

﴿ وَكُلَّ إِنْسانٍ أَلْزَمْناهُ طائره في عنقه،

ونخرج له يوم القيامة:

كتاباً يلقاه منشوراً

اقرأ كتابك

كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾.

[الإسراء: ١٧/ ١٣-١٤]

المحتويات

المقدمة

أزمة كتاب

أزمة ناشر

أزمة ضمير

أزمة إبداع

أزمة قراءة

أزمة تسويق

أحلام وآمال

المقـدمـة

ما أكثر الهموم

ما أكثر الهمومِ التي ينوء بها الناشر العربي، والتي قد تحرر منها الناشر في البلدان المتقدمة، فانطلق وكأنهُ نشِطَ من عقال، لايحمل غير هَمٍّ واحد هو (خدمة الثقافة) والعمل على تنمية المعارف، واختيار أفضل السبل لعرض المعلومات، وإخراجها بشكل لائق، وتيسير إيصالها إلى القارئ.

هذا التحرر من الهموم، هو الذي وفر للناشر في البلدان المتقدمة المناخ الملائم للتطور والإبداع والتميز، فكان لكل ناشرٍ طابعه الخاص، وأسلوبه المميز، وقراؤه الواثقون، مما أتاح له فرص النمو والتوسع من جهة، والتربع على عرش صناعة الكتاب، والإمساك بزمامها؛ يخطط ويبرمج لها، وينسق بين أطرافها من جهة أخرى.. حتى غدا (الناشر) هو الحلقة الأولى الضرورية التي لايمكن حذفها من سلسلة (إنتاج الكتاب)، وأصبح له الدور الأساسي في مشروع إنتاج الكتاب؛ فهو الذي يقف في مركز الرؤية الشاملة والمحيطة التي تمكنه من تقدير

الحاجات الثقافية لمجتمعه، وحشد الطاقات العلمية اللازمة لتغطيتها، ووضُعه المركزي هذا هو الذي يوجب عليه أن يتحمل العبء الأكبر، وأن يأخذ بزمام المبادرة والمغامرة في مشروع إنتاج الكتاب؛ يخطط ويكلف ويراجع ويعدل وفق ضوابط ومعايير محددة، تكفل إخراج الكتاب في مستوى لائق ومتميز.

ولم يكن تعدد الناشرين في البلدان المتقدمة عبئاً على المجتمع، بل كان انطلاقاً من حاجته إليها، وقد استطاعت الدور المتعددة أن تتكامل عبر التخصص، وأن تتعاون عبر التنافس، وأن تتلون بألوانها الزاهية عبر التمايز.

أطرح هذه الصورة للناشر بين يدي ما سأطرحه من هموم الناشر العربي في واقعه الراهن، لكي ألفت النظر إلى ضخامة الأعباء والواجبات الملقاة على كواهلنا لكي نخلص الناشر من همومه وأزماته الراهنة. وما هموم الناشر العربي إلا هموم (الكتاب).

هذا الكتاب الذي يسهم في إنتاجه مع (الناشر) كل من: (المؤلف) و(الطابع) و(الموزع)، ويتوجهون به أخيراً إلى (القارئ)، وهمومه تتناوشهم جميعاً، وتعنيهم جميعاً.

ولكي يكون بحثنا دقيقاً، فلابد لنا من التعريف بكلٍّ من هذه المصطلحات على حدة، قبل أن نخوض في همومها، مركزين على (الكتاب) الذي تتلاقى عنده الهموم.

الكتاب؛ معناه وتاريخه

(الكتاب) خزانة المعارف الإنسانية، ومستودع التجارب البشرية المتراكمة، يحفظها السلف للخلف، كي ينطلق الخلف منها، ويبني عليها موفراً على نفسه عناء التكرار والإعادة.

و(الكتاب) - إذا أطلق - فإنه يعني كلمة السماء، ففي الصحف الأولى بدأت الأرض تقرأ سطور الحضارة.

وليس شيء في الدنيا أشرف ولا أقدس من (الكتاب).

وكلُّ مايتصل بالكتاب، أو يشتق لغوياً منه، أو يتعامل معه؛ صناعة أو استهلاكاً، فإنه يستمد منه هذا الشرف وهذه القداسة.

ولقد تكرر ذكر مصطلح (الكتاب) في القرآن الكريم أكثر من مئتي مرة كما تكرر ذكر (القلم) ومايُسطر، و(الكلمة) الطيبة، و (التلاوة) الحقة، فضلاً عن مصطلحات : القراءة، والتدبر، والعقل، والنظر، والتفكر، والسمع، والبصر، والفؤاد، بوصفها وسائل المعرفة الموصلة إلى (العلم).

وآخر كتاب تلقته البشرية من السماء هو (القرآن).

و (القرآن) يمثل الثابت من القيم، والفرقان من الكلم، لايزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولاتنقضي عجائبه، ولا يخلَق من كثرة الرد. وهذا هو سرّ إعجازه، وبذلك بقي (القرآن) وسيبقى ملهماً للبشرية في أجيالها المتعاقبة؛ يرتشف منه كل جيل مايضيء له السبيل، ويرتقي بفهمه وتفسيره له، على قدر ارتقاء معرفته ونمو طاقته العلمية.

ولقد كان انقطاع الوحي من السماء، بمثابة الإجازة العلمية للعقل البشري كي يبدأ بالعمل، وكان إعلاناً عن محو (الأمية)، وإيذاناً ببداية عصر (العلم).

﴿ ولا تقفُ ماليسَ لكَ به علمٌ؛ إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كانَ عنهُ مسؤولاً ﴾. [الإسراء: ١٧/ ٣٦]

ولقد قام الرواد من كل أمة بواجبهم في صنع (الكتاب):

الصينيون، وشعوب مابين النهرين، والفراعنة، وبلاد الشام، واليونان والرومان. وكان اليونانيون أكثر الناس كتابة أيام

حضارتهم، وأسماء فلاسفتهم وشعرائهم وحكمائهم لاتزال لامعة، وكتبهم وأفكارهم لاتزال موضع عناية ودرس.

والعرب، الذين أيقظتهم كلمة ﴿ اقرأ ﴾ عندما دوت في غار (حراء) وترددت أصداؤها في جنبات (مكة)، انطلقوا يقرؤون علوم الدنيا التي كانت سائدة في عصرهم، حتى إذا استوعبوها، حفظوها وطوروها وأضافوا إليها الكثير، مما لايزال ينسب إليهم ويسمى بأسمائهم. وكانت حصيلتهم من (الكتب) أعلى حصيلة عرفتها البشرية في التاريخ، وفهارس مخطوطاتهم تضم عشرات الآلاف من العناوين، بعضها لم يصل إلينا.

لقد عرفت البشرية (الكتابة) منذ حوالي خمسة آلاف عام، لكنها لم تنعم بـ (الكتاب) إلا بعد شيوع استخدام الورق قبل حوالي ألف عام، وظل (الكتاب) زمناً طويلاً ينشر بطريقة (النسخ)، ولم تعم الاستفادة منه إلا بعد اختراع (الطباعة) قبل حوالي خمس مئة عام.

فالكتاب (المطبوع) يعتبر حلقة وجيزة من تاريخ توصيل الفكر الإنساني.

وفي غمرة التقدم العلمي المتسارع في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين؛ من يدري؟! لعل الكتاب سيستغني عن الحرف (المطبوع) على الورق، متجهاً إلى الحرف (المضاء) على الشاشة؟! وكيف ستقدم المعارف الإنسانية لأجيال القرن المقبل؟! وهل ستتأثر طرائق تفكيرهم نتيجة القراءة السريعة على الشاشة التي تختزل لهم الوقت، وتقدم لهم المعلومة المطلوبة بضغطة زر، بدلاً من تقليب مئات الصفحات في عشرات الكتب، مثلما أراحتهم الحاسبات من عناء العمليات الحسابية، وجدول الضرب، وحرمتهم من رياضة الذهن؟!

تعريفات موجزة

(المؤلف): هو صانع الأفكار موضوع الكتاب، هو صاحب النص ومبدعه، والمالك الوحيد لحق نشر مخطوطه.

وهو ـ عادة ـ يبحث عن ناشر يبيعه هذا الحق، ويتعاقد معه على دفع مبلغ معين؛ محدد سلفاً، أو بنسبة من سعر بيع الكتاب، أو يشاركه في الربح.

و (الناشر): هو المخطط والمنظم والمجمِّع الذي يأخذ بزمام المبادرة والمغامرة في مشروع إنتاج الكتاب؛ يتسلم المخطوط من المؤلف ويراجعه ويهيئه ويدفعه إلى المطبعة، ويتولى تصحيحه وإخراجه ثم إيصاله إلى القارئ.

ووضعه يجعله في مركز الرؤية الشاملة المحيطة التي لا تتيسر لباقي الأطراف. لذا فإنه يتحمل المسؤولية الأكبر، لرؤيته كل الأبعاد، وأخذها بالاعتبار.

و (الطابع): هو الصانع الذي يتسلم المخطوط من الناشر، ويقوم بعمليات الصف والطبع والتجليد وفقاً لتعليماته. فعمله

يقتصر على تنفيذ طلبات الناشر، وواجبه يتركز في جودة الطبع، والمتابعة لمواعيد الإنتاج، والمثابرة على تهيئة الكوادر الفنية والآلات الحديثة للحصول على أفضل النتائج.

و (الموزع) : هو الحلقة الأخيرة في صناعة الكتاب؛ فهو مروجه، وعمله يتركز في توصيل الكتاب إلى القارئ، وواجبه أن يهتم بإيجاد الكتاب أمام عين القارئ، وتوسيع وسائل العرض في المكتبات والمراكز الثقافية، وأماكن التجمع العامة.

و (القارئ) أخيراً: هو المستهلك والمنتفع والمستفيد من هذا الإنتاج، الذي تضافرت جهود عديدة لإيصاله إليه. وعليه أن يحسن الاختيار لما يقرأ، ويحسن التدبر والفهم والنقد لما يقرأ، ويحسن الانتفاع والعمل بما يقرأ.

هذه الأطراف الخمسة: المؤلف والناشر والطابع والموزع والقارئ، هي أطراف شديدة الارتباط والتفاعل والتكامل. وإن التعاون بينها لازم وضروري للنهوض بصناعة الكتاب، في هذا الوقت الذي يعيش فيه العالم فترة نمو ثقافي وتحول حضاري سريع، لم يشهدها من قبل في تاريخه الطويل.

وإذا كنا قد أدرجنا القارئ ضمن أطراف صناعة الكتاب، مع أنه المستهلك له، فإنما أدرجناه عن قصد، فوعيه القرائي أو قراءته الواعية، عنصر أساسي في توجيه إنتاج الكتاب، وإقباله على نوعٍ من الكتب أو عزوفه عنه عامل هام مشجع أو مثبط.

وهكذا تتوزع هموم (الكتاب) بين هذه الأطراف.

لانريد أن نذهب بعيداً مغ توقعات عصر الحاسب الإلكتروني، بل الواجب أن نقف وقفة مع (الكتاب المطبوع) في واقعه الراهن، بين مؤلف، وناشر ، وطابع، وموزع، وقارئ.

ماهو الدور الذي يؤديه كل منهم في صناعة الكتاب؟

وما هي العلاقات التي تربط بينهم؟

ماهي المشكلات والمعوقات؟ وما هي الحلول؟

وقبل كل ذلك: ماهو الدور الذي يؤديه الكتاب في بناء وتنمية المجتمع؟ ماهو الواقع؟ وماهو المنتظر والمتوقع؟

إن الموقف من (الكتاب) كان ولا يزال يحدد (المستوى الحضاري) لكل أمة من الأمم.

وحين نتساءل عن الدور الذي يؤديه الكتاب عندنا في تعميق الوعي بالتنمية، وفي رسم ملامح التحول الاجتماعي، نجد أنفسنا مضطرين للاعتراف بأن دوره مازال محدوداً يتحرك في دائرة ضيقة، تكاد تكون مغلقة، وتنطلق من مفاهيم تقليدية،

تشد المجتمع إلى ماضيه أكثر مما تدفعه لبناء مستقبله، وتحجب عنه مايدور حوله من صراع في (عالم الأفكار).

من المسؤول عن هذا العجز؟ وماهي المعوقات والمشكلات؟

لقد انعقدت للإجابة على هذا السؤال الكثير من (الندوات) قدم فيها الكثير من البحوث، التي صورت الأعراض، وحاولت تشخيص الداء. وأكثر ما وجهت الأنظار فيها إلى (الناشر العربي) الذي كان هدفاً لكثير من الانتقادات. كما أشيرَ إلى معوقات أخرى تتصل بالمؤلف، وبالقيود، وبالقارئ، وبالمجتمع.

همـــــوم ناشــــر عــــربي

أزمـــة كتـــاب

أولاً: طبيعة الأزمة

الكتاب العربي يعاني أزمة كساد، يبدو ذلك واضحاً من اضطرار معظم الناشرين، بمن فيهم ناشرو القطاع العام، إلى تخفيض عدد النسخ التي يطبعونها من الكتاب لكي لا تتكدَّس في مستودعاتهم دون أن تجد من يتلقَّاها بالعناية والإقبال.

ولا يغيّر شيئاً من ظاهرة الكساد هذه مايطبع بكميات كبيرة من الكتاب المدرسي، أو شبه المدرسي، كالمعاجم والقواميس، والكتب التي تعالج قضايا راهنة (كتاب الساعة) وكتب الطبخ والتدبير المنزلي والطب الشعبي، والكتب التراثية المرجعية، وكتب الثقافة الشعبية التي انطبعت في ذاكرة الجماهير عبر القرون. فهذه ثقافة إلزامية أو شبه إلزامية تخرج عن نطاق بحثنا الراهن، وهي وإن لم تكن تعاني من أزمة الكساد فإنها تعاني من أزمات أخطر قد تعود على الثقافة العامة ببعض الضرر.

ثانياً: غلاء سعر الكتاب

يرى البعض أن (غلاء سعر الكتاب) هو السبب الرئيسي والأهم في أزمة الكتاب، فهو الذي يحرم ذوي الدخل المحدود من اقتناء الكتاب، ويجعله حكراً على الموسرين القادرين على شرائه ليزيِّنوا به مكتباتهم المنزلية، ويضفوا به على (ديكور) المنزل لمسة جمالية تظهرهم في عداد المثقفين أو المهتّمين بالثقافة. وهكذا نجد أن من يرغب بقراءة الكتاب لايقدر على شرائه، ومن يقدر على شراء الكتاب لايقرؤه.

ويردّ هذا البعض غلاء سعر الكتاب إلى جشع الناشر الذي يستغلّ حاجة الناس إلى الكتاب فيرفع سعره، ويكتفي هؤلاء بإلقاء المسؤولية على عاتق الناشر، ويطالبونه وحده بالحل.

لا أريد أن أقف موقف الدفاع عن طرفٍ من أطراف الأزمة، وأدخل في متاهة تبادل الاتهامات واللوائح، فننشغل بذلك عن موضوعنا الأساسي. فأزمة الكتاب هي الهمُّ الكبير الذي يجب أن نبحث له عن الحلول الواقعية والسريعة كي ننقذه من الهوة التي يتردَّى فيها. وليكن بحثنا هذا مجرَّداً وموضوعياً،

مهما كان في الموضوعية من قسوة على هذا الطرف أو ذاك. وليكن بحثنا أيضاً منطلقاً من منطلق الفعالية والواجب، بحيث يطرح أمام الجميع مايجب عليهم أن يفعلوه، لا أن نعقد الندوات والمؤتمرات لنبثّ الشكاوى، ونندب الحظوظ، ونتملّق الناس، ونطالب فقط بالحقوق، فالحقوق لاتؤدّى إلاّ إذا قام كل إنسان بواجبه، وحين يؤدّي كل إنسان واجبه يصل كل إنسان إلى حقّه، وبالتالي فإن حلّ الأزمات لا يكون بالأماني والأحلام، وإنما بالمعاناة وأداء الواجبات.

وعلينا الآن أن نتساءل: هل غلاء سعر الكتاب هو السبب الحقيقي في أزمته؟ لقد نجحت بعض مؤسسات النشر الرسمية في تقديم الكتاب للقارئ بسعر منخفض، مستفيدة من الدعم الذي تلقاه من الدولة، فهل استطاعت أن تحل أزمة الكتاب بذلك؟.

وهل أقبل القرّاء على شراء الكتاب بحيث اضطرّت إلى زيادة كمياتها المطبوعة؟.

الواقع يشير إلى أن الأزمة مازالت مستمرة في التفاقم، وأن تخفيض سعر الكتاب لم يغيّر ولن يغيّر كثيراً في الأزمة، وأن وراء أزمة الكتاب أسباباً أخرى يجب البحث عنها.

إن عزوف القارئ عن شراء الكتاب يؤدّي إلى تخفيض كمية طبعه، وتخفيض كمية الطبع يؤدّي بدوره إلى ارتفاع تكلفة الكتاب، وبالتالي إلى رفع سعره، الأمر الذي يزيد الأزمة تعقيداً ويجعلها تدور في حلقة مفرغة.

في أوروبا والبلدان المتقدِّمة يبلغ سعر الكتاب أضعاف سعر الكتاب العربي، ويطبع بكميات أكبر بعشرات المرّات من كميات طبع الكتاب العربي، وتنفد كمياته الكبيرة في مدة أقصر.

إنهم يقرؤون ولا نقرأ.

ويتحرّك الكتاب عندهم بلا قيود، وتكبّله عندنا القيود.

وتتضافر الجهود عندهم لتنمية عادة القراءة، وتشجيع الإنتاج الفكري، ويعاني عندنا من الإهمال.

ويتفاعل المؤلّف عندهم مع قضايا مجتمعه ويلبّي حاجاته الفكرية، ويكرِّر مؤلّفونا أنفسهم دون إبداع.

هذه بعض الأسباب الحقيقية لأزمة الكتاب، ولنعد الآن إلى معالجة مارأينا أنه سبب رئيسي في الأزمة وهو غلاء سعر الكتاب.

ثالثاً: العناصر المكونة لسعر الكتاب

يتعاون كل من المؤلِّف والناشر على إنتاج الكتاب، ثم يصل الكتاب إلى القارئ عن طريق وسيطين هما الموزِّع وبائع الكتب، فكيف يتحدَّد سعر الكتاب ضمن هذه الحلقة التي تضم المنتج والوسيط والمستهلك؟ والتي تشمل: تكلفة الإنتاج، والشحن، ومكافأة المؤلِّف، وربح الناشر، وحسم التوزيع.

لنحاول تحليل هذه المكوِّنات في محاولة لمعرفة أسباب الغلاء، وبالتالي اقتراح الحلول لها.

(١) - فأما تكلفة الكتاب التي تشمل نفقات تحرير النص وإعداده وتصحيحه وإخراجه وطبعه وتخزينه والإعلان عنه، فهي مرتبطة إلى حدٍّ كبير بمستوى إخراج الكتاب، وهو يختلف اختلافاً كبيراً بين ناشر وآخر، ويحتاج إلى ضوابط أخلاقية تفرض على الناشر الالتزام بحد أدنى من العناية بالكتاب تتفق مع شرفه وأهميته.

هنالك من الناشرين من يهتم بتزيين الغلاف الخارجي

للكتاب ولا يبالي بمضمونه. ومرّة قال لي أحدهم، عندما أطلعته على أخطاء فادحة في كتاب من منشوراته، تتضمّن تبديل صفحة جاءت من كتاب آخر لتحل محل صفحة من الكتاب، وتشوّه فقرات، وطمس كلمات، قال لي: عندما يشترى الكتاب نيقرأ سأهتم بمضمونه. . . نوع من التهرّب من المسؤولية، وإلقائها على عاتق الآخرين، لكنها إجابة مفيدة تشي بدلالات واستنتاجات كثيرة.

على كل حال فإننا نريد مستوى لائقاً للكتاب من حيث إخراجه شكلاً ومضموناً، دون إسراف، ولا نريد لمحاولتنا تخفيض سعر الكتاب وتيسيره للقارئ أن تتناول مستوى إنتاجه.

يمكننا أن نفكرّ في طبعات شعبية أقل تكلفة، على غرار كتاب الشهر وكتاب الجيب، لكن ذلك لن يكون مجدياً إذا لم نتمكّن من توسيع الساحة الثقافية التي ستستقبل الكتاب، الأمر الذي سنعالجه في مكان آخر.

ذلك أن تكلفة الكتاب تتناسب عكساً مع الكمية المطبوعة منه: تقل التكلفة كما زاد عدد النسخ المطبوعة، وتزداد كلما

انخفض. فمهما اجتهدنا في تخفيض السعر فإن ذلك لن يكون مجدياً إذا لم يرافقه ازدياد في إقبال الناس على القراءة.

(٢) - **نفقات شحن الكتاب**: وهي نفقات باهظة جداً تختلف حسب وسائل النقل بين أن تكون براً أو بحراً أو جواً، أو بواسطة البريد. ونقل الكتاب وإيصاله للقارئ على الساحة العربيةوالعالمية مسألة هامة جداً، وهي عنصر أساسي من عناصر أزمة الكتاب، كما هي سبب من أسباب غلاء سعره، ولابدّ من معالجتها.

فالنقل البري والبحري اللذان هما أقل كلفة يعانيان من الضعف، ومن قيود الترانزيت التي تطيل مدة التوصيل.

وتصدير الكتاب إجمالاً يعاني في بعض بلدان العالم العربي من قيود أنظمة القطع المرهقة، كما يعاني استيراده من فرض رسوم باهظة في بعضها الآخر.

وذلك كله ينعكس على سعر الكتاب وعلى القارئ، ولابدّ من معالجته:

١ - بإعفاء الكتاب من قيود أنظمة القطع ومن الرسوم الجمركية وغيرها.

٢ - بتخفيض قيود المرور (الترانزيت) على الكتاب وتيسير حركته بتنشيط النقل البري والبحري.

٣ - تخفيض التعرفة البريدية تخفيضاً ملموساً.

٤ - منح الكتاب حسماً كافياً على الخطوط الجوية الوطنية في بلد تصدير الكتاب (على الأقل). فالكتاب سفير إعلامي ينبغي دعمه وتشجيعه.

(٣) - حسم التوزيع: يقوم كل من الموزِّع وبائع الكتب بدور هام في إيصال الكتاب إلى القارئ. وقد اصطلح على اقتطاع جزء من سعر الكتاب يقتسمانه بينهما هو (حسم التوزيع)، وهو يتراوح عادة بين ٢٠٪ و ٤٠٪ من سعر بيع الكتاب حسب نوع الطلب والكمية المطلوبة. غير أن هذا الحسم قد اعتراه خلل خطير حين لجأ بعض الناشرين، ولاسيما في لبنان، إلى تجاوز العرف، ورفع حسم التوزيع، وتباروا في ذلك حتى وصل به بعضهم إلى

نسبة ٧٠٪ في محاولة لإغراء الموزِّع وبائع الكتب إبان غلاء سعر العملة اللبنانية بالنسبة للعملات العربية الأخرى.

وهذه الزيادة في الحسم لم تكن على حساب الناشر، بل كانت على حساب القارئ. فكل زيادة في الحسم كان يقابلها زيادة في سعر بيع الكتاب، بحيث يبقى السعر الصافي العائد إلى الناشر ثابتاً. ويتضح ذلك لنا من المثال التالي:

إذا كان السعر الصافي الذي يرغب الناشر باسترداده هو ٦٠ قرشاً، فسوف يسعر الكتاب للقارئ:

بـ ٨٥ قرشاً إذا حسم للموزِّع ٣٠٪.

و ١٠٠ قرش إذا حسم للموزِّع ٤٠٪.

و ١٢٠ قرشاً إذا حسم للموزِّع ٥٠٪.

و ١٥٠ قرشاً إذا حسم للموزِّع ٦٠٪.

ففي كل هذه الحالات سيكون المبلغ الصافي الذي يدفعه الموزِّع ويستلمه الناشر ثابتاً، بينما الذي ارتفع هو سعر البيع للقارئ.

هذه الزيادة الوهمية في نسبة الحسم التي انطلقت من لبنان

في ظروف استثنائية، مستخدمة أسلوب الخداع التجاري، صدّقتها مؤسسات توزيع رسمية في بعض الأقطار العربية فكرّست هذا الحسم الوهمي الخادع، وثبّتته في عقودها المعدّة من قبلها وفق نموذج محدّد، وفرضته على الناشرين في كل الأقطار العربية. ولم تنفع معها كل الصيحات التي انطلقت لتلفت النظر إلى عنصر الخداع في زيادة الحسم، متشبّثة بأنها حصلت على نسبة ٥٠٪ مع نفقات الشحن من بعض الناشرين اللبنانيين، وما على الناشرين الآخرين إلاّ الاقتداء بهم إذا أرادوا أن يتعاملوا مع هذه المؤسسات. وعلى الرغم من أن حسم التوزيع في كل من مصر وسورية لايزال عند الحد المتعارف عليه، لأن الطاقة الشرائية في كل من البلدين لاتسمح برفع الحسم الذي هو في الحقيقة رفع للسعر، فقد اضطر معظم الناشرين إلى إصدار نشرتين للأسعار: نشرة بالعملة المحلية خاضعة للحسم العادي داخل القطر، ونشرة بالعملة الصعبة خاضعة للحسم العالي، للتصدير وإرضاء رغبة الموزّع.

ومن الضروري جداً، وقد زالت الأسباب التي دفعت بعض الناشرين إلى ممارسة هذا الأسلوب، أن يعودوا إلى الحسم

العادي لكي يساعدوا على استقرار سعر الكتاب، تحقيقاً لمصلحة القارئ، ومنعاً لفوضى الأسعار الناجمة عن الزيادة الوهمية في الحسم والسعر.

كما أنه من المفيد كذلك أن ننوّه بأن بعض دور النشر الجادة في لبنان قد تمسّكت بقواعدها وحسمها المعتاد، ولم تنزلق إلى متاهة الزيادات الوهمية، وفرضت شروطها، واثقة من نفسها، ومن جديتها ونوعية منشوراتها، وبعض دور النشر الأخرى قد أخذت تعود تدريجياً إلى الحسم المعقول، وسيكون لذلك أثر كبير في استقرار سعر الكتاب.

(٤) - وأمَّا مكافأة المؤلِّف: فإنها تشكِّل جزءاً من تكلفة الكتاب لاينبغي أن يمسّ كذلك، ولايجوز أن يكون تخفيض سعر الكتاب على حساب المؤلِّف الذي ينفق الكثير من ماله في اقتناء مراجعه ومقروءاته، وينفق الكثير من وقته وعرقه وكدّه كي يقدِّم لنا إبداعه.

ورغم أن النسبة التي يتقاضاها المؤلِّف في بلادنا تعتبر عالية إذا ما قورنت بالنسبة التي يتقاضاها في البلدان المتقدِّمة، إلا أن الحصيلة هنا ضئيلة جداً، لاتتيح للكاتب تدارك حاجاته

الأساسية، فضلاً عن أن تهيّئ له فرص العيش الكريم. بينما هي في البلدان المتقدِّمة عالية جداً توفِّر للمتقدِّمين من الكتَّاب دخلاً يضارع دخل نجوم الفن وغيرهم من المبدعين، وذلك كله بسبب سعة الساحة الثقافية: إمعانها في الضيق هنا، وإمعانها في الاتساع هناك، الأمر الذي يتطلَّب مضاعفة عدد النسخ المطبوعةعشرات - إن لم نقل - مئات المرَّات.

(٥) - ربح الناشر:

وأخيراً فالناشر إن كان مؤسسة عامة فعليه أن يوفِّر كل مابوسعه، ويوجِّه كل دعم مالي يحصّله لمصلحة القارئ، وتخفيض سعر الكتاب. وأمَّا إن كان مؤسسة فردية فلا عليه أن يسترد ما أنفقه على الكتاب بالإضافة إلى ربح معقول يراعي فيه شرف السلعة التي يتعامل بها، وأهميتها الاجتماعية. مع العلم بأن رفع سعر الكتاب لن يكون في مصلحة الناشر الذي يجد نفسه بين خطرين: خطر الكساد الناجم عن ضعف القوة الشرائية لدى القارئ، وخطر التزوير الناجم عن ضعف الوازع الأخلاقي لدى لصوص الكتاب الذين يتلمَّظون لسرقة جهود الآخرين عندما يكون السعر ورواج الكتاب مغريين لهم بالسطو وممارسة اللصوصية.

رابعاً: الحلول المقترحة لحل أزمة الكتاب

إذا أردنا لهذه الحلول أن تكون في مستوى الفعالية والتطبيق فعلينا أن نتبيَّن من هم المعنيون بها، ونبيّن مايجب على كل منهم فعله مما يمكن كلاً منهم أن يفعله.

فالمعنيون بالكتاب هم: القارئ والمؤلّف والناشر والموزّع والدولة.

١ - فأمَّا القارئ فهو صاحب المصلحة الحقيقية بحل أزمة الكتاب، وعليه أن يعوّد نفسه على القراءة ويخصّص لها جزءاً كافياً من وقته، ومن دخله، ومن اهتمامه. فأما الوقت فهنالك أوقات ميّتة، مثل أوقات الانتظار، والأوقات التي نقضيها في وسائط النقل، وهنالك أوقات الفراغ الدورية والطارئة، كل ذلك يجب أن نحييه بالقراءة، بالإضافة إلى الوقت الذي يجب أن نخصّصه يومياً لقراءاتنا الجادة.

وأما الدخل فمهما كان محدوداً فإن علينا أن نخصّص نسبة

منه نوفّرها من كمالياتنا، ونستغني لأجلها عن بعض عاداتنا الاستهلاكية التي قد تبدو لنا ضرورية، وسنشعر بكثير من السعادة والمتعة عندما نحرم أنفسنا منها لصالح (الكتاب). وأما الاهتمام فينبغي أن يظهر في متابعتنا وحسن اختيارنا لما نقرأ، وفي توظيف مانقرأ تلخيصاً وتمحيصاً ونقداً وتطبيقاً ونقلاً وإرشاداً، وهذه هي القراءة الواعية والمجدية.

٢ – وأما المؤلّف فعليه أن يضاعف من قراءاته واطلاعه وتأمّلاته وتفاعله مع قضايا مجتمعة لكي يتمكّن من توليد الأفكار المتسمة بالعمق والجدّة والحيوية والطرافة والفعالية، والقادرة على شدّ انتباه القارئ وتنشيط ذهنه للنقد والحوار الذي هو العامل الأساسي في تنمية الأفكار. فلقد ملّ القارئ من التكرار والاجترار، والغثاثة والتعميم، وغياب التخصص، والاغتراب والعزلة، والانفصام عن ثقافة المجتمع وقضاياه، فكان ذلك سبباً في عزوفه عن (الكتاب)، وفي ضمور في الفكر تكاد معه لاتعثر فيما ينشر على الساحة العربية على فكر جديد مرة أو مرتين في كل عقد من الزمان.

٣ – وعلى الناشر والموزّع أن يتعاونا على توفير الكتاب

للقارئ بأقل سعر ممكن، وأن يبحثا عن أساليب جديدة في إخراج الكتاب بسعر رخيص يتناسب مع الطاقة الشرائية للقرّاء من ذوي الدخل المحدود، مع المحافظة على المستوى، ولاسيّما مستوى المضمون وذلك مثل كتاب الجيب وكتاب الشهر، وأن يبحثا كذلك عن أساليب في عرض الكتاب وتوصيله للقرّاء وتقديم التسهيلات التي تشجّعهم على اقتنائه، وتساعدهم على تكوين عادة القراءة لديهم، وتجعل أحدهم يفكّر باقتناء كتاب كلما كان لديه وقت فراغ أو انتظار فيشغله به. إن من الضروري جداً إيجاد هذه الأساليب الجديدة الكفيلة بتوفير الكتاب وتسهيل اقتنائه وإغراء المستهلك بشرائه، وسوف نلمس أثر ذلك في الإقبال على الكتاب، وزيادة عدد نسخه.

٤ - وأخيراً، فإن على الدولة، وبوسعها، أن تفعل الكثير:

- تنمية عادة القراءة وحب القراءة.

- التعريف بالكتاب: بتقديم البرامج الخاصة في وسائل الإعلام، وعقد الندوات، وتخصيص حيّز ثابت في الصحافة اليومية.

- التوسع في إقامة المراكز الثقافية وإنشاء المكتبات المدرسية والمكتبات المتخصِّصة في الإدارات الحكومية، وتزويدها بالكتب الجديدة.

- إعفاء الكتاب ومواده الأولية من الرسوم الجمركية، وغيرها.

- تشجيع تصدير الكتاب، وإعفاؤه من تعهد إعادة قطع التصدير.

- تسهيل التصدير بمنح تخفيض مناسب على أسعار النقل الجوي.

- تنمية مؤسسات التوزيع وتشجيعها.

- النشر المشترك: حيث تساهم الدولة بتغطية النفقات الأولية للكتاب، لكي يقدَّم للجمهور بأسعار منخفضة.

آمل أن يكون في هذه المقترحات بعض مايساعد على حل أزمة الكتاب، وإزالة المعوقات التي تحدّ من انتشاره وأداء دوره المرتقب.

أزمة ناشر

أولاً: القصور في مؤسسات

لنبدأ بالناشر العربي، الذي كثر عنه الحديث، ووجهت إليه السهام، حتى غدت صورته مظلمة قاتمة؛ فهو - كما صوروه لنا - : ضعيف الإحساس بالرسالة الثقافية لأمته تغلب عليه النزعة المادية، وشهوة الكسب، يبخس المؤلف حقه، ويمعن في استغلال جهوده الإبداعية، وينشد الربح من أيسر الطرق؛ فإذا راجت سوق (روايات جرجي زيدان)، وألف ليلة وليلة، ونوادر جحا وأبي نواس، أو علت موجة الكتب الشعبية مثل: الحصن الحصين، ودلائل الخيرات، وتفسير الأحلام، وغرائب الجان، وشمس المعارف، أو اشتد الطلب على كتب العقاد، وطه حسين، وميخائيل نعيمة، وجبران، ونجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، رأيت الناشرين العرب يتهافتون على طبع هذه الكتب، تحدوهم المنافسة المحمومة إلى إخراجها بأيسر كلفة، وأقل جهد، موجهين عنايتهم إلى تزيين الغلاف بما يشد انتباه القارئ، غير عابئين بالمضمون، ولا بحقوق المؤلف المادية أو المعنوية.

أما الموجة الحاضرة في نشر الكتب التراثية التي حققت رواجاً، وصل إلى مايزيد عن ٧٥٪ من إنتاج دور النشر العربية، فقد تعامل الناشرون معها على نحوٍ أكثر جشعاً، وأشد امتهاناً للمادة التراثية؛ فلا اختيارَ، ولا تنسيقَ، ولا تحقيق، ولاتوثيق، ولا فهارس، ولا ضبطَ للنص، إنما هي نسخة واحدة من كتاب تعاورها عدد من الناشرين، صوروها بأخطائها وعيوبها، كما طبعت أول مرة في مطلع القرن العشرين، وكرروا تصويرها حتى اهترأت وتآكلت حروفها، بل لم يبالوا بتسلل صفحة من مجلد إلى آخر، طالما أن الغلاف الأنيق المذهب سيستر العيوب، ويطويها كطي السجل للكتب.

وعندما ارتفعت بعض الأصوات مطالبة بالتحقيق والتعليق، جاؤوا بمصححين أغرار، كلفوهم بشرح بعض الكلمات، وكتابة مقدمات تشي بفقرهم العلمي، رغم ماتزخر به من عبارات الورع الديني، وإخلاص المقصد، ثم كتبوا على غلاف الكتاب بماء الذهب: (تحقيق لجنة إحياء التراث في الدار الفلانية).

وماتزال الانتقادات تنهال على الناشر، ومايزال في جعبة المعنيين بصناعة الكتاب كثير من الانتقادات والتهم الموجهة إليه، مثل التزوير والقرصنة، وفقدان الاستراتيجية والأهداف، والجهل بما ينشر، ولمن ينشر ولماذا وكيف؟.

لكن القضية التي تظل بالغة الأهمية، إنما هي قضية العلاقة بين المؤلف والناشر؛ هذه العلاقة التي تتسم بالتوتر والغموض وتنازع المصالح مما جعل المؤلف العربي يشعر بالحيف والظلم، ودفع بعض الأسماء الأدبية المعروفة إلى فتح دارٍ لنشر إنتاجها الخاص.

ثانياً: ملاحظتان لابد منهما

من الظلم أن نمر بهذه الصورة القاتمة التي رُسمت للناشر، دون أن نزيل عنها القتامة، مشيرين إلى الملاحظتين التاليتين:

١) إن قطاع النشر لم يكن في يوم من الأيام محروماً من وجود الناشر الملتزم بالهوية الثقافية لأمته، المستوعب لطبيعة مرحلتها الراهنة، المستشعر لقضاياها وحاجاتها، المقدر لخطورة المهنة التي يحترفها. ففي النصف الأول من القرن الحاضر عرفنا ناشرين علماء أمثال: محب الدين الخطيب، وحسام الدين القدسي، ومنير الدمشقي، ومحمد راغب الطباخ، وزكريا يوسف، وأحمد عبيد، وياسين عرفة، والخانجي، وبهيج عثمان. ولا يزال قطاع النشر يزخر بأمثالهم من الناشرين الجادين، الذين يحظون بكل احترام وسمعة طيبة.

٢) إن الصورة القاتمة التي رسمت وعزيت خطأ إلى الناشر، لاتخص الناشر الحقيقي ولا تمت إليه بصلة:

إن صورة التاجر الذي يتخذ لنفسه مكتباً فخماً تحت لافتة كبيرة تحمل عنوان (دار للطباعة والنشر) ثم يوجه همته إلى تصيد كتاب شيق يتوقع له الرواج ؛ لشهرة مؤلفه، أو طرافة موضوعه، أو شعبيته، حتى إذا عثر على ضالته المنشودة دفع بها على عجل إلى المطبعة، تاركاً لها أن تختار نوع الورق والحرف والغلافَ المناسبَ، مما هو متيسر لديها من تصميمات جاهزة، ثم ينهمك بإجراء اتصالاته لبيع الطبعة المنتظرة بصفقة واحدة أو عدة صفقات لايتقيد فيها بالقواعد المتعارف عليها لتسعير الكتاب ولا بأصول توزيعه . . . مثل هذا التاجر لايجوز أن نطلق عليه اسم (الناشر)، لأن الدور الذي يلعبه لايرقى لأن يكون حلقة أساسية أو مرحلة ضرورية من مراحل إنتاج الكتاب .

وإنتاج الكتاب على هذا النحو لايحتاج إلى أي مؤهل ثقافي، ويستطيع أي بقال أو بائع مرطبات أو تاجر ملابس أو حتى سائق سيارة أجرة أن يضم نشاط الكتاب إلى قائمةنشاطاته، وأن يتعامل معه بوصفه سلعة مثل سلعة الغذاء والكساء ومواد البناء .

أما (الناشر) الذي هو حلقة ضرورية في تصنيع الكتاب، لايمكن حذفها، فله دور أساسي في مشروع إنتاج الكتاب؛ يخطط وينظم ويراجع ويحضر حسب قواعد وضوابط محددة، تكفل إيصال الكتاب إلى القارئ بأفضل الشروط والمواصفات التي تيسر قراءته والانتفاع به.

ثالثاً: الدور الحقيقي للناشر

لئن تناول الناس دور الناشر من خلال سلبياتٍ ومآخذ عانوها، أو من خلال إيجابيات نادرة حمدوها، فقد آن لنا أن نطرح الموضوع من زاوية أخرى، تعتمد منطق الفعالية، وتتحدث بلغة الواجب والمسؤولية؛ ذلك أن طرح المشكلات بأسلوب الشكوى والمطالبة بالحقوق، إنما هي لغة الكلِّ القاعد عن العمل، العاجز عن الفعالية والتأثير.

فما هي واجبات الناشر، من أجل أن يقدم الكتاب الأفضل؟

وماهي المراحل التي ينبغي للكتاب أن يتقلب فيها بين يديه، قبل أن يصل إلى القارئ؟

لعلنا نلقي بعض الضوء على هذه الواجبات فيما يلي:

أولاً - شعور الناشر أنه شريك المؤلف في مسؤوليته عن الكلمة التي ينشرها، بل إن مسؤوليته هي الأكبر، لأنه الناشر

المذيع لها بين الناس بكمية كبيرة من النسخ، ولولاه لظلت كلمة المؤلف محدودة الذيوع، مقتصرة على محيطه الضيق.

لذلك فإن على الناشر أن يحدد أهدافه العامة واختصاصاته ويبني خطته على ضوئها، ويحسن الاختيار بما يلائم رسالته.

ثانياً ـ تنمية التحرير، واستدراج المخطوطات، وتحويل الأفكار إلى كتب.

إن الناشر الذي يكتفي بالقعود في مكتبه، ينتظر المؤلفين لكي يأتوا إليه بالمخطوطات، لايعد ناشراً. بل الناشر من يوجه ويشجع ويدفع المؤلفين للكتابة في الموضوعات التي يعتقد أنها ستلبي حاجة وتسد نقصاً. ويكون ذلك بالتخطيط لنشر سلاسل وموسوعات يستنفر للكتابة فيها عدداً من المؤلفين؛ ينسق بينهم، وينظم إنتاجهم، حتى تنتظم الحلقات المتناثرة في سلاسل مؤتلفة من أمثال: ذخائر العرب، وأعلام الفكر، وروائع المسرح العالمي، وما إلى ذلك.

ثالثاً ـ صيانة المخطوط من الضياع، وهو واجب إداري يكون باتخاذ سجل أو بطاقة متابعة تبين تاريخ تسلم المخطوط من

المؤلف، وتاريخ تسليمه إلى الفاحص، وتاريخ إعادته إلى المؤلف أو إدارة التحرير، وبالجملة يسجل ملاحظات وتواريخ جميع مراحل الطبع والنشر والبيانات اللازمة عن الكتاب، لتحديد المسؤوليات.

رابعاً - فحص المخطوط: ويتم على ثلاث مراحل:

آ ـ القبول المبدئي: (ربما) للاقتصاد في الوقت والمال، يجب أن يرفض الناشر على الفور المخطوط الذي لا يلائم موضوعُه اختصاصَه، أو اتجاهه المقرر للنشر.

ب - القراءة الأولى: وهي مجرد فحص عينات من المخطوط، وإلقاء نظرة شاملة عليه بغرض تقرير رغبة المؤسسة بالمضي قدماً في عملية النشر أم لا.

جـ ـ الفحص: وهو إما داخلي في قسم التحرير في المؤسسة، أو خارجي يتم بالاستعانة بمختص في الموضوع، وبحسب استمارة معينة توضح للمستعان به المسائل التي يجب أن ينبه إليها، ويوليها عنايته. والنتيجة قد تكون: الموافقة، أو طلب التعديل، أو الرفض.

خامساً ـ تنقيح المخطوط وإعداده:

قد لايهتم المؤلف بقواعد الإملاء، ولا علامات الترقيم، وقد يسهو عن بعض القواعد اللغوية، فضلاً عن الاختلاف في استخدام القواعد بين مؤلف وآخر، فالبعض يستخدم الإملاء المصري، والبعض يستخدم الإملاء الشامي، والبعض يستخدم قواعد الرسم القديمة. ومن الضروري جداً أن يكون للناشر قواعد معتمدة في كل ذلك، يوحد على ضوئها جميع منشوراته، فتخرج على نسق واحد. ولابد لتحقيق ذلك من أن يكون لدى الناشر جهاز للتحرير، يتمتع باليقظة والسليقة اللغوية، يقوم بتنقيح المخطوط وفقاً للقواعد المعتمدة لدى الناشر، ويقدمه للصف بشكل لايدع الراقن يتوقف أثناء العمل ليفكر ويتبين مايريده المؤلف.

بالطبع، ليس للمنقح أن يتدخل في أسلوب المؤلف، لكن له أن يصحح الأخطاء المنافية للحقيقة العلمية البديهية؛ كأن يقرأ في المخطوط عن جبل يبلغ ارتفاعه ٢٢٨٣٥ متراً، فسيدرك فوراً خطأ هذا الرقم لعلمه أن قمة إڤرست (أعلى جبل في العالم) لاتزيد عن ٨٨٨٢م.

سادساً ـ الإخراج:

وهو النظر في الكتاب نظرة واعية شاملة لتحديد قياس ونوع الحرف، وطول السطر، والمسافة بين الكلمات وبين الأسطر، والعناوين الرئيسية والفرعية ومواضع الصور والأشكال، وتصميم الغلاف. ومن الضروري أن يضع الناشر مواصفات معينة لكتبه تحدد الشكل المادي للكتاب، وتميز ملامحه الخارجية والداخلية، ومعلوماته الوصفية (الببليوغرافية)، بشكل يبرز شخصية الناشر، ويجعل لمنشوراته طابعاً متميزاً.

سابعاً ـ التصحيح:

من المعروف أن المؤلف لايحسن تصحيح كتبه، لأنه غالباً مايقرأ مافي ذهنه لا مافي التجارب، لذا كان ضرورياً أن يتولى مصحح من قبل الناشر عملية التصحيح، وينبغي ألا تزيد تجارب الطبع عن اثنتين، يطلع المؤلف على الأخيرة منهما قبل أن تدفع للطبع.

ومعظم المؤلفين والمصححين مازالوا يستخدمون طريقة

قديمة في الإشارة إلى مواضع الخطأ، فعلى الناشر أن يقدم لهم جدولاً بإشارات التصحيح المتعارف عليها حديثاً، ويوجههم لاستخدامها توفيراً للجهد والوقت. كما يلفت نظرهم إلى عدم التعديل عن الأصل.

ثامناً ـ الفهرسة :

يتعاون المؤلف والناشر على صنع الفهارس اللازمة للكتاب، بحسب طبيعته وموضوعه، فالكتاب العربي وخاصة التراثي فقيرأو خالٍ من الفهارس التي أصبحت ضرورية جداً لإعانة القارئ على الوصول إلى هدفه بأيسر جهد وأقل وقت مثل فهارس الأعلام والبلدان والشعر والآيات والأحاديث والمعارك والمعاهدات والموضوعات والأفكار، وغيرها.

وينبغي أن تكون للناشر طريقته الواضحة في الفهرسة، وعناصره المدربة عليها.

هذه بعض المراحل التي يجب أن يمربها الكتاب في مراحل صنعه وهي مراحل دقيقة ومعقدة، لايشعر بأهميتها وصعوبتها إلا من يعانيها من الناشرين الجادين. فالقارئ الذي

يتناول الكتاب مطبوعاً، قد لايخطر في باله مرور الكتاب بكل هذه المراحل؛ من التأليف إلى التنقيح إلى الإخراج إلى الرقن إلى التصحيح إلى المراجعة إلى الفهرسة إلى التدقيق إلى الطبع إلى التجليد إلى فحص الجودة إلى الإعلان إلى التوزيع.

تاسعاً - دليل الناشر وتجربة دار الفكر:

ينبغي أن تكون للكتاب مواصفات علمية دقيقة، يقوم الناشر بتحديدها ورعايتها وتحسينها أثناء صناعة الكتاب.

ومن المفيد جداً أن يكون للناشر دليل عمل مطبوع يوضح فيه هذه المواصفات، والقواعد، وطرق وأساليب العمل، وجداول إشارات التصحيح، والمصطلحات الطباعية، والقواعد المعتمدة لديه في الإملاء وعلامات الترقيم، وفي ضبط الآيات والأحاديث وتخريجها، وفي العزو إلى المراجع والنصوص وتحقيقها، وفي الفهرسة، وفي وصف الكتاب، وفي طريقة ترقيم الطبعات.

وسيكون هذا الدليل مفيداً جداً، لا في تحسين الأداء فحسب، بل في تنمية وتوطيد العلاقات بين أطراف صناعة الكتاب.

إن لدار الفكر تجربة رائدة في هذا المجال، أثبتت جدواها وفعاليتها، فقد أصدرت عام ١٩٨٤ دليلها للعمل، ووضعته بين أيدي المؤلفين، كما دربت عليه جميع أطرها الفنية العاملة. وكان من نتيجة ذلك أن منشوراتها أخذت تصدر على نسق موحد، ذي أوصاف وملامح مدروسة وخالية من التناقض.

وإنني أدعو جميع الناشرين للنظر في هذه التجربة وتقويمها، والتي تبرز شخصية الناشر وتؤكد دوره الفعال، وأثره في تنمية المجتمع.

إن غياب المنهج العلمي والأوصاف الدقيقة الموحدة في إنتاج الكتاب يلحق كثيراً من الضرر بثقافة المجتمع. فما تعج به الكتب المطروحة اليوم من الأخطاء والتناقض، ليؤثر تأثيراً كبيراً على عقلية أجيالنا، ومناهج تفكيرنا، ولغة أبنائنا.

قد يرى البعض في هذا الطرح شيئاً من التهويل والمبالغة. لكن الأمر جد خطير. لنأخذ على سبيل المثال أي كتاب تقع عليه أيدينا دون تعيين، ولنقرأ صفحة ما منه دون تعيين أيضاً، نتبيّنْ خطورة الموضوع، وحجم الأخطاء والتناقضات.

وأول مايطالعك في هذه الصفحة : فوضى الهمزات، فالألف في أول الكلمة تهمز أو تهمل بلا قاعدة، ولقد مضى على الكتاب زمن أهملت فيه همزة القطع اختصاراً، عندما كان التنضيد يتم بالحرف اليدوي، ولما تطور التنضيد إلى الآلي ثم الألكتروني وذللت الصعوبة، وزعت الهمزة على أوائل الكلم عشوائياً، دون التزام بقاعدة ولا ضابط، وتسابق عمال التنضيد والمصححون في وضعها حتى على (ال) التعريف، وماضي الخماسي والسداسي وأمرهما ومصدرهما، وأمر الثلاثي، وأصبحت تقرأ في الصحف والمجلات والكتب أمثال : (إقرأ، وإنطلق، وإجتماع، وإقتصاد، وإسم، وإمرأة).

ومن طريف ماوقع لي شخصياً، أنني مرة صححت كلمة(إقرأ) على ظهر غلاف كتاب معد للطبع، فحذفت همزة القطع التي جعلت خطأ في أولها، وأرجعتها همزة وصل، وتأكدت من حذفها على آخر تجربة قبل الطبع، وعندما قُدمت لي نسخة من الكتاب مطبوعةً، راعني أن أجد همزة (اقرأ) قد عادت لتحتل مكانها عنوة تحت الألف، وتتبعت الموضوع، حتى

عرفت أن عامل التصوير - لما يعلم من كلفي بالهمزة - تطوع وأثبتها، وهو يحسب أنه قد أحسن صنعاً. وأسدى إلى اللغة العربية معروفاً.

ولنعد إلى صفحتنا التي اخترناها للقراءة دون تعيين، ولنمعن النظر في علامات الترقيم، لنرى أن النقطة قد وضعت لتفصل بين شطرين من جملة لم تكتمل بعد، وأن الفاصلة قد وضعت في نهاية جملة مكتملة، والفاصلة المنقوطة قد وضعت في غير محلها، وأن الأقواس قد استخدمت للزينة، فتارة تراها قوسين مفردين يحيطان بنص منقول، وتارة مزدوجين يحصران اسم علم، وتارة مضلعين أو مزهرين بلا ضابط... ألهذا وضعت علامات الترقيم؟ أليست لها مدلولات معينة دقيقة مصطلح عليها؟.

أما عن الوصل والفصل؛ والزيادة والحذف، والربط والبسط، والنقط والإهمال، في مثل: داود وإسحاق، ومئة ومائة، والثقات والبغاة، وعلي وعلى، فحدث ولا حرج.

وعندما يتكرم الطابعون بضبط الكلمات بالشكل

والحركات، فهنالك الطامة الكبرى، وصرف الكلمات عن أصل وضعها، وقلب قواعد الصرف والنحو رأساً على عقب، هنالك سيصرخ كل غيور على اللغة: أوقفوا هذا العبث! دعوا النص مطلقاً، واتركوه للقارئ سليماً، لاتشوهوه بتحريك خاطئ! لو أن التناقضات التي ذكرت كانت تجري على قاعدة وأسلوب واجتهاد، لكان في الأمر نظر. أما أن تصبح لغتنا فوضى بلا ضوابط فهنا تكمن الخطورة. وعندما تألف عين القارئ هذه الفوضى، فلسوف تؤثر في منهجيته، وطرق تفكيره، وسوف تصبح الفوضى لديه قاعدة، طالما أن عينه قد ألفت أن ترى الشيء ونقيضه في صفحة واحدة من كتاب، وقد لايعدم من يفلسف له الأمر ويقول في كل تناقض: يصح الوجهان، وفي المسألة قولان، قيل كذا وقيل كذا، والله أعلم، وعقلنا مستقيل. وكم سيكون الأمر مختلفاً عندما يطرح الناشر كتبه على نسق موحد، ملتزماً قواعد محددة، تعتادها عين القارئ، وشيئاً فشيئاً، تصبح هذه القواعد لديه (ملكة) دون أن يلم بها، وتصبح اللغة لديه (سليقة)، ولو لم يكب على درسها.

لقد آن لنا أن نرتقي بمهنة النشر إلى المستوى اللائق بها، وأن نشعر بمسؤوليتنا الكبيرة عن الكلمة التي ننشرها، وأن نمحو الصورة القاتمة التي رسمت لنا ونحن نتعامل مع الكتاب الخالد كما نتعامل مع سلعة زائلة.

إن يقظة الأمة وتصميمها على إزالة عوامل التخلف، والوعي المتزايد كفيلان بكشف الزيف والإعراض عن الغثاثة ﴿فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ [الرعد: ١٣/ ١٧].

هموم ناشر عربي

أزمة ضمير

أزمة ضمير

إنها أزمة ذاتية، مصدرها نحن الناشرين، وأعراضها الخطيرة تفتك بنا، واستشراؤها فينا يمس شرفنا المهني، ولا يليق بقدسية المهنة التي احترفناها، وعلاجها ينبغي أن يكون في أيدينا نحن.

فأنا ممن يحب البدء بأداء الواجبات، قبل المطالبة بالحقوق، ويحب أن يبدأ التغيير من الذات بدلاً من أن يفرض من قبل الغير؛ وذلك هو المستفاد من قول اللّه تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مابِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّروا مابِأَنْفسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

وسواءً أكان محترف التزوير هو المبادر بإغراء تاجر الكتب، أم كان التاجر هو المبادر بإغراء المزور بطبع كتب لاتعود إليه حقوق طبعها، فإن الاستمرار في تجاهل هذه الجريمة النكراء التي يشترك في اقترافها كلٌّ من المنتج والموزع والمستهلك، سوف يؤدي إلى تخريب ثقافي وخلل اجتماعي وأخلاقي كبير.

قصة التزوير

وللتزوير قصة؛ أحداثها تدور على الساحة الثقافية في الوطن العربي، وفصولها تبدأ عند مغامر يعيش في مناطق إنتاج الكتاب وتصديره، يلمح، خلال الركود المحلي في سوق الكتاب، طلباً ملحاً على كتاب معين، قررته جهة تعليمية، أو صادف هوىً واهتماماً لدى القراء، فتراوده أحلام الثروة السريعة، وتتحرك في نفسه نوازع الإثم فينطلق مسرعاً إلى متجر للحقائب اليدوية، يشتري منه حقيبة يد فاخرة، ويتخذ لنفسه بطاقة زيارة تحمل اسمه إلى جانب عنوان ضخم يوهم أنه ناشر كبير، ويلملم من هنا وهناك حفنة من الكتب يختارها من العناوين التي صادفها الحظ، ولقيت بعض الرواج من بين مئات العناوين الراكدة، ويشتري بطاقة سفر ليتوجه بها إلى البلدان المستوردة لهذه الكتب، بادئاً بأوسعها سوقاً وأكثرها طلباً.

وما إن يحط في بلد حتى يأخذ طريقه إلى المكتبات عارضاً نماذجه، معلناً عن مقدرته الواسعة على تزويدهم بها بأرخص

الأثمان. وما عليهم إلا أن يزيدوا في الكمية المطلوبة، حتى يحصلوا منه على السعر الأرخص.

سوف يصادف عدداً كبيراً من أصحاب المكتبات الجادة والعريقة، ممن يتمسكون بأخلاق المهنة، ويعفون عن الكسب الحرام، ويرتبطون بعلاقات طيبة مع الناشرين الأصليين، لكنه لاييأس، ويواصل جولته وإغراءاته حتى يقع على ضالته؛ نفسٍ مريضة لتاجر ناشئ، يبادله الرغبات نفسها، وتعتلج في صدره النوازع الشريرة ذاتها.

ها قد حانت الفرصة، وانعقدت الصفقة، وتناول المزور سلفة تعينه على شراء أردإ أنواع الورق، يتوجه به إلى طابع مغمور بعيد عن الأنظار، قد ملَّت آلاته الانتظار، فيتلقف العمل الذي ساقه القدر إليه، ويسرع في تنفيذه كي يكسب الزبون الجديد الذي حرك الدولاب.. ويحرص كلاهما على أن يتم العمل في كل مراحله في الظلام؛ التصوير والطبع والتجليد، كل ذلك ينبغي أن يتم في الظلام، إلى أن يأخذ الكتاب مكانه في علب (المالبورو)، تلك العلب التي لاينم مظهرها عن خبيئها، أكان كتباً، أم مناديل، أم آنية، أم سلعاً أخرى!.

لقد أصبح الكتاب المزور جاهزاً للشحن. . وصاحبنا على الطرف الآخر ينتظر بفارغ الصبر، يأخذ منه القلق كل مأخذ، فالسلفة قد دفعت، والمورِّد جديد على (الكار)، والكتاب مطلوب قد أوشكت نسخه (الأصلية) أن تنفد من السوق. . ويبدأ بقراءة بعض التمائم، كي يبقى الناشر (الأصلي) مستغرقاً في النوم.

وفي غمرة الهواجس، يتصل السائق من مركز الحدود. . . فتنحسر الكربة، وتنفرج الأسارير، ويجمع صاحبنا أوراقه التي تعب في ترتيبها وإتقانها حتى لاينكشف المستور، ويمضي للتخليص على البضاعة، واقتيادها إلى المخازن.

وتبدأ مرحلة (التسويق)، وهي مرحلة تحتاج إلى (شطارة)، فالخبراء من أصحاب المكتبات العريقة سيكتشفون اللعبة، وسيكشفونها لذوي الشأن. . فليبتعد عنهم، ولو إلى حين، وليتسلل بالكتاب (المسروق) إلى مراكز البيع الصغيرة. .

الكتاب رائج ومطلوب. . وهاهو معروض بأسعار رخيصة

مغرية، لكنها تبعث على الحذر؛ خوفاً من القانون، وخوفاً من الضمير. . لاداعي للخوف، سنزودك بفاتورة تخدع القانون، وسوف تتولى أموالُ السحت التي ستتكدس في جيبك إسكات صوت الضمير، والتغشية على عينيه، ولو إلى حين. .

وماهي إلا أيام حتى يكون الكتاب قد ملأ الأسواق، وتعقد الدهشة وهول المفاجأة ألسنة المستوردين والوكلاء الأصليين. . لقد طلبوا الكتاب من ناشره الأصلي منذ مدة طويلة، واعتذر لهم بأن الطبعة السابقة قد نفدت، وأن لديه تنقيحات أظهرتها المراجعة، وإضافات اقتضاها تقدم العلم وتطور الأفكار، لابد من إضافتها على الطبعة الجديدة للكتاب. . هذه الطبعة التي ستأخذ طريقها قريباً إلى المطبعة، وسوف يلبي طلباتهم منها عند إنجازها.

لم ينتظر القراء طبعتك الجديدة ياسيدي الناشر، رغم كل ماقد تحمله من تحسينات مستجدة، ولم يفكر أحد منهم بذلك. بل أقبل على الكتاب المتوفر بين يديه. . إنه كتاب بكتاب. . العنوان نفسه، والسعر مغرٍ. . لقد نجحت تمائم المزورين الذين

اهتبلوا الفرصة، وحين وصل الكتاب الأصلي المعدل أخذ طريقه إلى مخازن الوكلاء.. لقد ملوا عرضه في واجهات مكتباتهم، وملوا رفضه وإعادته إليهم من قبل أصحاب المكتبات الفرعية من عملائهم... نعم إنه سميك، ومنقح ومزيد، لكنه غالي الثمن، والطبعة المزوَّرة هي صاحبة الكلمة العليا في السوق لأنها الأرخص... لقد خيم اليأسُ والإحباط على المستمسكين بعرى القيم، وشرف المهنة، وآداب التعامل مع الثقافة، وصدقت القاعدة المالية التي تقول: «العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من التداول»، رغم اختلاف عوامل الطرد، حيث تُطرَدُ العملة الجيدة إلى خزائن المكتنزين، بينما الكتاب الجيدُ يطرد إلى مخازن الناشرين ليواجه فيها مصيراً، أشبه مايكون بدفن الأحياء في مقابر الأموات.

هل هذه ملهاة فنضحك؟ أم هي مأساة فنبكي؟

وسواءً أكانت ملهاة أو مأساة! فما هو مستقبل الثقافة؟ وماهو مستقبل المهنة؟!.

وهل سيستمر مؤلف جاد في التعب والسهر لمد قرائه

بمستجدات العلوم، ونفائس الفنون؟! أم هل سيستمر ناشر جادٌّ في التخطيط والمغامرة والإنفاق لإصدار السلاسل والموسوعات والأعمال الثقافية الكبيرة؟!.

أظن أن الجواب سيكون بالنفي،

طالما ظلت سوق التزوير قائمة على قدم وساق،

وظل المزورون (من لصوص الثقافة والكتاب) يسرحون ويمرحون بلا وازع من ضمير، ولا رادع من قانون،

وظل المؤلفون مشدوهين أمام تفشي هذه الظاهرة الخطيرة.

وظل الموزعون مترددين حائرين، يتعاملون مع الناشر بدافع من الضمير حيناً، ويتعاملون مع المزور بدافع من الربح السريع أحياناً.

وظل القراء غير مكترثين بمصدر الكتاب الذي يقتنونه، وخطورة إقبالهم على اقتناء مادة مسروقة، الأمر الذي سيثبط حركة الإبداع والتأليف، وينشط حركة اللصوصية والتزييف.

وظلت العدالة غافلة عن ردع المجرمين، واجتثاث هذه الجريمة النكراء.

لص في جبة واعظ

ولقصة التزوير فصول تتوالى على مسرح مفتوح، له في كل يوم فصل جديد، وشخصيات جديدة، لكن موضوعه واحد لايتغير.. إنه لصوصية (التزوير)..

وشخصية اليوم، شخصية طريفة جداً، تحاول أن ترتفع بفعلتها من مستوى الجريمة ودَرْكِ اللصوصية، إلى مستوى فِعْلِ الخير والغَيْرةِ على الثقافة.. تنتحل لنفسها المسوّغات، وتتشبث بالأعذار الواهية، كي تضفي على عملها هالةً من الشرف والمروءة، وترفَعَ عنها صَغار الإثم، وعارَ السرقة. وسرعان ماتصدّق هذه الشخصية أوهامَها، وتستمرئ أكاذيبها، وتأخذها العزة بالإثم، وتنتقل من موقع الدفاع، والتنصل من المسؤولية، إلى موقع الهجوم والاتهام. ومن العمل في الخفاء والظلام، إلى التبجح والاستعلان، ويبلغ بها الحماس أن ترتدي جبة الوعظ، وتبدأ بإلقاء الخطب والدروس في ضرورة تيسير العلم لطلابه، وترخيص أسعار الكتب لهم، وعدم استغلال حاجتهم إليها بإغلاء أثمانها.

المسرح، الذي يجري عليه عرض هذا الفصل، هو مكتبة كبيرة في إحدى العواصم العربية، يتربع بطله على كرسي إدارتها، قد حَوّل مكتبته إلى صالة عرضٍ للكتاب المزوَّر، وأخذ زمام المبادرة في التزوير، واستهان بكل القيم، وضرب عُرْض الحائط بكل الحقوق، وأصبح الكتاب عنده لايساوي أكثر من تكاليف طباعته، فإذا ما لاحظ طلباً على كتابٍ ما، فإنه لم يعد يفكر أن يتصل بناشره، ولم يعد ينتظر أن يأتيه به مزوِّرٌ محترف، بل أصبح، بحكم التجربة والممارسة، على صلة ببعض المطابع أو متعهدي الطبع في بلدان إنتاج الكتاب، وماعليه إلا أن يأمر بطبع كمية معينة من الكتاب وشحنها إليه، حتى يتسابق ذوو النفوس المريضة إلى تلبية طلبه، دون رعاية لحق، ولا احترامٍ لزمالة.

ونظراً لأنه وراء كرسي الإدارة قد ارتدى جبة الواعظ، فقد أعدَّ لخطبته كل العناصر اللازمة لطمس جريمته، وتغيير معالمها، وحفظ عن ظهر قلب كل النصوص الداعية إلى إشاعة العلم، ولفق فتاوىً تسبغ على عمله صفة الشرعية، نسبها إلى بعض أئمة الدين.

وحين يأتي إليه الناشر، المفجوع بسرقة كتبه، معاتباً، محاولاً (لفلفة) الموضوع، آملاً أن يثنيه عن غيه، ويستأنف معه تعاملاً شريفاً، متنازلاً له عن بعض الحقوق، عارضاً عليه تخفيضاً إضافياً في السعر، فإنه يبدأ بإلقاء خطبته التي أعدها إعداداً محكماً، كي يقنع الناشر أنه مستغل جشع معادٍ لنشر العلم، وأنه (المزور) إنما يقوم بعمله (المشرِّف) من أجل إنقاذ طلاب العلم المساكين من براثن هذا الناشر الجشع، ويدور بينهما هذا الحوار:

المزور : هذا الكتاب، أحتاج إلى طبعة خاصة منه بكمية ٣٠٠٠ نسخة، وأريد أن تعطيني سعراً خاصاً به.

الناشر : يسرني ذلك، إن سعره مدوَّن في قائمة الأسعار الصادرة عن الدار، والموجودة بين يديك، وسوف أقدم لك حسماً إضافياً مقداره ١٠٪ فوق الحسم المعتاد، نظراً للكمية التي طلبتها.

المزور : مالي وللحسم، أريد سعراً صافياً، لايزيد عن تكاليف الطباعة.

الناشر : لكنني لست طابعاً، إنما أنا ناشر الكتاب، وصاحب الحق الوحيد والحصري في إعادة طبعة، وأنا ملتزم بأداء حقوق التأليف بموجب عقد مع المؤلف.

المزور :مالنا وللمؤلف، هذه طبعة برانية خاصة بي.

الناشر : بالنسبة لي، لاتوجد طبعة برانية أو جوانية، ولابد من أداء الحقوق لأصحابها، كما إن تحضير الكتاب قد كلف جهداً كبيراً ومالاً، وعلى أساس ذلك كله تم تسعير الكتاب حسب ماتراه في القائمة.

المزور : أما بالنسبة لي، فإن ذلك كله لايعنيني، فها هو الكتاب بين يدي، عدد ملازمه معروف، وتكلفة تصويرة وطبعه معروفة، فإن وافقت على السعر فأنت مفضل على غيرك بوصفك الناشر.

الناشر :ولكن ماذا عن حق المؤلف وحق الناشر؟

المزور : العلم لايحتكر، ولاتوجد حقوق لمؤلف ولا ناشر، هذا ما أفتى به العلماء، وأنا أريد أن أطبع الكتاب كي أوفره لطلاب العلم، خدمةً للثقافة.

الناشر : مهلاً ياسيد! إن طلبة العلم بحاجة إلى كثير من الكتب المتخصصة، يحتاجون إليها بكميات محدودة فلماذا لم تفكر بطبعها وتوفيرها لهم؟ لماذا اخترت هذا الكتاب الذي كثر الطلب عليه من دون بقية الكتب؟ ألا تخدم الثقافة إلا حين تعود عليك بالربح الوفير، ولو كان حراماً ؟!

وكيف تفتري على علماء الدين، وتنقل عنهم فتوى كاذبة، دحضها مؤتمر الفقه الإسلامي، لمنظمة المؤتمر الإسلامي بقراره رقم (٥) د المؤرخ ٥/ ٩/ ١٩٨٨، والذي شاركت فيه وفود تضم علماء من جميع البلدان الإسلامية، بما فيها البلد الذي تنسب فتواك (المزورة) إليه.

وكيف تسوغ لنفسك الافتراء على الدين الذي إنما جاء لحفظ الحقوق، والأمر بالعدل، والقسط بين الناس؟

أولا تعرف أن القانون يمنع الاعتداء على حقوق الآخرين، ويعاقب المزورين؟

المزور : سأطبع الكتاب، وسيشحن إلي بموجب فاتورة رسمية، ولا أحد يستطيع أن يمنعني وإن كانت لك حقوق فيمكنك

أن تلاحقها في بلدك، أما هنا فلا شأن لك عندي ولاحق.

وينسدل الستار منهياً فصلاً من فصول المسرحية (المأساة)

ويخرج صاحبنا (الناشر) مشدوهاً لهول مارأى وما سمع؟.

لقد استعلنت اللصوصية واستشرفت، وارتدى اللص جبة الواعظ زوراً، وبرز الثعلب في ثياب الناسكين، وأظهر حرقته على العلم، وإشفاقه على طلبته المساكين، وأبدى استعداده للتضحية بكل الحقوق والقيم من أجل خدمتهم، واستلاب مافي جيوبهم بالباطل، ورحم الله (شوقي) حين قال:

مخطئ من ظن يوماً ... أن للثعلب ديناً

وسار في طريقه مبهوتاً من وقع الصدمة، أحقٌّ ما قاله (اللص) من أن (الناشرَ)، الذي أنفق الجهد والمال في التخطيط والعمل لتقديم أفضل الكتب لسد حاجات أمته الثقافية، مستغل؟!. لقد غامر بتمويل ونشر عشرات الكتب ماتزال مكدسة في مخازنه تنتظر مَنْ يُعَرِّف بها، ويدعو المثقفين إليها،

حتى إذا سنحت فرصة ونجح من بينها كتابٌ أقبل الناس عليه، كان المزوِّر (اللص) له بالمرصاد، ليتهمه بالاستغلال، ويتولى استثماره بالنيابة عنه وعن مؤلفه وعن كل الجهود المبذولة لإنتاجه.

هل يمكن أن يصبح الحق باطلاً، والباطل حقاً؟!

إن من الكتب ما أنفق الناشر في إنتاجه بضع سنين، استنفر خلالها بضعة عشر من المحققين والباحثين، وأنفق على تحضيره وإعداده الملايين، فهل عليه أن يتركه بعد ذلك لقمة سائغة للمزورين؟ وأن ينسى كل ما أنفقه من جهد وملايين؟

إن الناشر الجاد يعرف تماماً أنه هو صاحب الحق الحصري في استثمار منشوراته، وأن القوانين والشرائع في جانبه. كما إن المزوِّر يعرف تماماً أنه لصٌّ يسرق جهود الآخرين، ويستثمرها بدلاً منهم.. لذلك فإنه يتسلل إلى السوق من خلال (السعر).. إنه أقدر من الناشر على المزاحمة وتقديم السعر الأرخص، لأنه متحرر من كل الأعباء التي تحملها الناشر في تحضير المخطوط للنشر، ومن الالتزامات التي يتحملها تجاه المؤلفين.

وهكذا يستغل المزور مسألة السعر، بوصفها نقطة الضعف التي تشكل الإغراء الرئيسي للمستهلك، ولتاجر الكتب الوسيط، بل وحتى لبعض المؤسسات التعليمية والجهات الرسمية التي تطرح الكتب في مناقصات تأخذ بالاعتبار السعر الأرخص، ضاربة عرض الحائط بحقوق التأليف والنشر، دون أن تشترط على من يتقدم إليها إبراز مايثبت تقيده بهذه الحقوق . .

وهذا هو جوهر المشكلة . . فالمزوِّر الذي استعلن بلصوصيته، وأخذ يتبجح بها، لم يكن ليفعل ذلك، لولا بشاشة المجتمع له، وإغفاء القانون عنه، وصمت الناشرين إزاءه . . ولو أن الجهود تضافرت على تعريته وإزاحته عن منبر الوعظ، والكشف عن بشاعة الجريمة التي ارتكبها، والأضرار الخطيرة التي سيلحقها بمستقبل الثقافة والإبداع، فضلاً عن الاعتداء على حقوق الآخرين، لما أمكنه ادعاء الشرف والمروءة، وهو متلبس بجريمته النكراء . . شأنه في ذلك شأن أي لصّ سرق حلياً، وراح يعرضه رخيصاً في سوق المجوهرات، هل سيبش له أي تاجر، إلا ريثما يستدعي الشرطة، لتقوده إلى حيث ينال جزاء جرمه

الذي اقترفه؟ وحتى لو أن تاجراً سوّلت له نفسُه اغتنام هذه الفرصة، وأخذ المال المسروق بالسعر الرخيص، أفلا يعاقبه القانون بوصفه شريكاً للسارق، ساعده على إخفاء جريمته؟

وهب أن لصاً سرق سجاداً أو أثاثاً منزلياً، وراح يعرضه بأسعار مريبة، تنم عن جريمته، أفلا تتحرك الضمائر، وتمتنع عن شراء مالٍ مسروق أو مشتبه به؟!

ماالفرق بين سارق حقوق النشر والتأليف، وسارق الحلي والأثاث؟

هل سمعتَ يوماً أن لصاً اعتاد السطو على البيوت والمحال التجارية، تبوأ مكانة رفيعة وسمعة طيبة بين الناس، لعرضه مسروقاته بأسعار رخيصة؟! هل سمعتَ يوماً أن أحداً صفّق للصٌ نظراً لجهوده الشريرة في تيسير السلع للناس بسعر رخيص؟! أم أن العدالة ستطوله إن عاجلاً أم آجلاً، وتأخذ صورته وبصماته لإيداعها في سجل أصحاب السوابق، ثم تشير إليه بأصبع الاتهام كلما ارتكبت جريمة سرقة.

إن من الواجب تعرية مزوري الكتب، وخلع جبة الوعظ

التي ارتدوها زوراً وبهتاناً، وإماطة اللثام عن وجوههم، حتى يبرزوا بوجوههم الحقيقية المجرمة، وكشف حقيقتهم للناس كي يتجنبوا التعامل معهم، وبيان حرمة هذا التعامل بوصفه مشاركةً في الجريمة توجب المسؤولية. وتوضيح أن المال الذي يستخدم في هذا التعامل إنما هو سحت ومالٌ حرام. . لا فرق في ذلك بين سرقةنشر كتاب، وسرقة أي مالٍ متقوم آخر.

ومالم نفعل ذلك، فعلى مستقبل المعرفة والثقافة والإبداع السلام. فلن يقدم أحد على بذلِ جهدٍ في تأليف أو تحقيق أو نشر، طالما كان يشعر أن عصابة من المزورين تقف لعمله وجهوده وعرقه وسهره بالمرصاد.

قرصنة البحر :

يروي لنا التاريخ أن القراصنة استطاعوا ذات يومٍ أن ينظموا أنفسهم، ويرسخوا تقاليد لمهنتهم، أخذت شكل القوانين الصارمة، يلتزمونها في علاقاتهم فيما بينهم، ويسرحون ويمرحون في عرض البحار، يقتسمونها فيما بينهم، ويجعلون منها مناطق نفوذ يحترمونها، فيعترضون السفن، ويهاجمون الموانئ، ويعودون بالأسلاب والغنائم التي يعيشون عليها، ويعدونها مصدر رزقهم.

وأنهم بذلك هددوا التجارة العالمية، وفرضوا الإتاوات على كل سفينة عابرة، بوصفهم سادة البحار، والمالكين الشرعيين لها، بحكم سبقهم إليها، ومايمتلكونه من قوة تقف بالمرصاد لكل من تسول له نفسه مخالفة أوامرهم.

وبالرغم من كل الحجج التي تذرع بها قراصنة البحر

لتسويغ قرصنتهم، وإضفاء الشرعية على عملهم، وبالرغم من كل القوة والنفوذ الذي أحاطوا أنفسهم به، فقد استطاعت الجهود الدولية الدؤوبة أن تستأصل شأفتهم، وأن تقضي على قرصنة الأفراد - على الأقل - منهم.

فمن لقراصنة الفكر والنشر قبل أن يشتد ساعدهم، ويستفحل خطرهم؟!.

قرصنة النشر قتل للإبداع:

إن أخطر ماتنطوي عليه هذه القرصنة هو الإضرار بمستقبل الثقافة، ووأد حوافز الإبداع، باستباحة حقوق المبدعين.

فقرصان النشر لايقوم بأي إبداع، ولايشجع عليه، بل يسطو على أعمال المبدعين، ويحرمهم من حقهم في استثمار جهودهم الإبداعية.

قرصان النشر، لايهمه أن يخطط لسد ثغرة ثقافية، أو حشد طاقات علمية لإنتاج عمل موسوعي أو معجمي أو لتحقيق عمل تراثي جاد، أو لإصدار سلاسل علمية أو أدبية، كما لايهمه أن

يتعامل مع المؤلفين، يتلقف إنتاجهم، ويكافئهم على أتعابهم، كل مايهمه أن يرصد حركة السوق، حتى إذا لاحظ إقبالاً على عنوان حقق رواجاً من بين عشرات العناوين المكدسة في مخازن الناشرين وعلى أرفف المكتبات، انقض عليه مستبيحاً كل حق أو حرمة، وهو يتلمظ إلى تحقيق ربح سريع على حساب جهد وعرق الآخرين.

إنه يتجاوز كل مراحل الإبداع، قافزاً مباشرة إلى مراحل المحاكاة والتصوير، فهو لايتصل بأي من المؤلفين أو المحققين أو مراكز الدراسات والأبحاث، كما لايقيم أية علاقة مع مراكز الصف والتنضيد والإخراج والتصميم، بل إنه يتجنب هؤلاء جميعاً ويتوارى منهم، ويعمد مباشرة إلى مراكز التصوير وتجار الورق وأصحاب المطابع والتجليد، يختار منهم من يأنس لديه الاستعداد لكتمان السر، وإخفاء الجريمة، والمشاركة في الكسب الحرام، ويمضي في البحث عن شركاء في الإثم، يساعدونه على تسويق مسروقاته في الخفاء.

إن كل من يساعد القرصان يعد شريكاً له في عملية

القرصنة، ليس فيهم واحد من المبدعين، بل هم يتعاونون جميعاً على السطو على أعمال المنتجين الحقيقيين من مؤلف وناشر ومنضد ومخرج، ويتآمرون على تجاهلهم، والدخول إلى السوق منافسين لهم، منافسة غير شريفة ولا عادلة ولا متكافئة.
وسرعان مايستجيب ضعاف النفوس في السوق إلى إغراء السعر، فالقرصان أقدر على المنافسة في هذا المجال، لكونه متحرراً من كل النفقات الأولية لإعداد الكتاب، فلا حقوق لمؤلف، ولا نفقات لتنضيد وتصحيح وإخراج. وهكذا يتصدر القرصان السوق، ويتراجع الناشر والمؤلف والمبدع، ويحظى القرصان بحفاوة أهل السوق، لأن مصالحهم قد ارتبطت به، ويفقد الناشر والمؤلف احترامهما لديهم، لأن حقوقهما ترتب إضافة على السعر الذي يقدمه القرصان، وعليهما إما الانسحاب من السوق، أو التخلي عن حقوقهما.

وكلا الحالين مضر أبلغ الضرر بمستقبل الثقافة، حيث يفقد المبدع كل حافز يشجعه على المضي في إبداعه.

ولكي يتضح مدى الضرر اللاحق بثقافة الأمة، علينا أن

نتصور ناشراً خطط لتحقيق عمل تراثي كبير، أو موسوعة علمية ضخمة حشد لها عدداً من المؤلفين والباحثين، وزودهم بعشرات المراجع، ووفر لهم كل إمكانات البحث، وأنفق على ذلك الملايين، وصبر على إعدادها السنين، حتى إذا رأت النور، وصدرتْ لتأخذ مكانها في المكتبات، تصدى لها القراصنة، لقمة سائغة بلا جهد ولا صبر ولا إنفاق، أي حافز يمكن أن يدفعه لتكرار مغامرة الإبداع المريرة؛ إذا لم يجد قانوناً يحمي الحقوق، وسلطة تردع العدوان، وضميراً يحترم شرف المهنة؟.

عندما تقع عين القرصان على صيد دسم؛ عنوان حقق رواجاً واشتد عليه الطلب، تتحرك في نفسه نوازع الإثم، ويبدأ بالتخطيط للانقضاض على هذا الصيد، تماماً مثلما يخطط وحش الغاب للانقضاض على فريسته.

وغالباً مايبدأ بجمع الطلبات من السوق، حتى إذا تجمعت لديه كمية مغرية منها، أرسل من يشتري له كمية من الناشر الأصلي تصلح غطاءً شكلياً لعمليته، ودفع بنسخة منها لتتقلب في مراحل الإنتاج في أيدي الأمناء على السر الذين اختارهم للتعاون معه على إخفاء الجريمة.

وتتفاوت مسؤولية هؤلاء الشركاء حسب درجة معرفتهم بأسرار الجريمة، ولعل أقلهم مسؤولية هو تاجر الورق، الذي لايسأل عادة عن الهدف من شراء الورق، والكتاب الذي سيطبع عليه، وما إذا كان المشتري يملك حقوق طبعه أم لا. غير، جهالته هذه لاتعفيه من المسؤولية، فهو بحكم تعامله في السوق

سرعان مايكتشف المفسد من المصلح، والقرصانَ من الناشر، وعلى كل فالمسألة معقدة حيث القرصان لايعدم أسلوباً للحصول على مبتغاه بطرق ملتوية، ولابد من التعاون بين التنظيمات المهنية المختلفة لإيصاد هذا الباب.

أما المصور والطابع والمجلد والشاحن وصاحب المكتبة، فلا عذر لهم، ومسؤوليتهم أكبر، ومقدرتهم على الرصد أعلى، حيث المادة الجرمية في أيديهم، يستطيعون من خلالها تبين معالم الجريمة، مالم يكونوا متواطئين للتعامي عنها.

وغالباً مايعمد قراصنة النشر إلى محاكاة الأصل في كل مواصفاته وسماته، نوع الورق وألوان الغلاف، واسم الدارالناشرة، ليخرجوه طبق الأصل، ويعرضونه كما لو أنه صادر عن الناشر الأصلي.

ويتمادون أحياناً، مطمئنين إلى غفلة أصحاب الحقوق، أو إلى عجزهم عن المطالبة بحقوقهم، أو إهمالهم ذلك، وتغريهم الاستزادة من الكسب الحرام، فينتقصون من جودة الورق والطبع، وربما من المادة نفسها بإغفال بضع صفحات أو

ملزمات، أو العودة إلى طبعات سابقة تم تعديلها والزيادة عليها، ولا يبالون بشيء طالما أن الكتاب مطلوب، والزبون مهتم بالسعر الأرخص، ولا فرق فهو كتاب بكتاب، يحمل العنوان نفسه، وله مجمل ملامحه الخارجية.

ويبالغون في التمادي أحياناً، فيعمدون إلى استبدال اسم ناشر وهمي باسم الناشر الأصلي. وتبلغ بهم القحة أحياناً أن يضعوا اسماً لناشر حقيقي لا علم له بما يحصل، أو أن يضعوا اسمهم علانية دون خوف ولا وجل.

١ - ذريعة توفير الكتاب لطلبة العلم: كثيراً ما يتذرع بها بعض المزورين، فيعمدون إلى طبع كتابٍ تقرر تدريسه في بعض المؤسسات، بحجة حاجة الطلبة إليه، وعدم توفره في السوق، ويظهرون حسن نيتهم، وعزمهم على دفع حقوق التأليف عند ظهور من يطالب بها. ولو توفر حسن النية حقاً لبادروا إلى الاتصال بالمؤلف أو الناشر، وتعاونوا معهما على توفير الكتاب، بدلاً عن إقدامهم على طبعه مستبيحين حرمته ومتجاهلين حقوقهما فيه.

٢ - ذريعة تحريم احتكار العلم وكتمانه، بدلالة حديث رسول الله ﷺ: «من كتم علماً يعلمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار»، وأن العلم شهادة حرم الله كتمانها بقوله تعالى: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٣].

ومن الواضح أن الذين يستبيحون الاعتداء على حقوق التأليف والإبداع بهذه الذريعة، لا يهمهم نشر العلم، قدر ما

يهمهم الربح الذي يعود عليهم منه، نتيجة لسرقة جهود المؤلف والناشر وحرمانهما من حقهما في استثمار إبداعهما.

فمن المؤكد أن الكتمان المحرم، إنما هو إخفاء الحقائق أو تحويرها، مراعاة لمصلحة شخصية، أو مجاراة لسياسة قائمة، وأن التحريم منصب على الكتمان لا على المعاوضة، وأن كتمان العلم والشهادة الوارد في نص الحديث والآية، لا ينقض ما تأصل في التشريع الإسلامي من حق الإنسان في ملكية ثمار جهده، وحرمة الاعتداء على هذا الحق، بنص قوله تعالى ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾. [البقرة: ٢/ ١٨٨].

ولئن حاول القراصنة الاستفادة من بعض الفتاوى الشرعية، الصادرة في ظل ظروف مختلفة سبقت عصر الطباعة، وكان الكتاب فيها ينتسخ باليد، فإن قرار مجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي رقم (٥) د ٥/ ٩/ ٨٨ الصادر في ١٥/ ١٢/ ١٩٨٨ بشأن الحقوق المعنوية قد أسقط الفتاوى التي يتذرع بها لصوص الكتاب لتغطية كسبهم الحرام، فقد جاء في مادته الثالثة:

«حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مصونة شرعاً، ولأصحابها حق التصرف فيها، ولا يجوز الاعتداء عليها».

٣ - ذريعة غياب القوانين الخاصة بحماية الابتكار والإبداع في بعض الدول:

قامت كثير من الدول بإصدار قوانين خاصة بحماية حقوق المؤلف، ولعل من أوائل المشرعين في عالمنا العربي الذين خصوا حقوق المؤلف بقانون خاص هو المشرع المصري الذي أصدر قانون حماية حق المؤلف رقم ٣٥٤ لسنة ١٩٥٤، وقانون تنظيم الرقابة على (المصنفات) رقم ٤٣٠ لسنة ١٩٥٥، ثم أجرى عليهما بعض التعديلات بالقانون رقم ٣٨ لسنة ١٩٩٢.

وقد شمل القانون بالحماية جميع المصنفات التي يكون التعبير عنها بالكتابة أو الصوت أو الرسم أو الحركة أو التصوير، كما نص على شمول حمايته لعنوان المصنَّف إذا كان متميزاً بطابع ابتكاري، ولم يكن جاريًا للدلالة على موضوع المصنف.

وحدد المدة التي تنقضي فيها حقوق الاستغلال المالي من قبل المؤلف بمضي خمسين عاماً على وفاته.

وعاقب بالحبس وبغرامة لا تقل عن خمسة آلاف جنيه كل من اعتدى على حق من حقوق المؤلف، ووسع أنواع الاعتداء حتى جعلها شاملة كلَّ من قلّد في مصر أو أدخل إليها مصنفاً منشوراً في الخارج، أو باعه، أو عرضه للبيع، أو للتداول، أو للإيجار، أو صدَّره مع علمه بتقليده، فضلاً عن المصنفات المنشورة في مصر.

وقضى القانون بمصادرة النسخ المقلدة، والأدوات المستخدمة للتقليد، وبنشر ملخص الحكم الصادر بالأدلة في جريدة يومية أو أكثر على نفقة المحكوم عليه.

كما أجاز للمحكمة أن تقضي بإغلاق المنشأة التي استغلها المقلدون أو شركاؤهم مدة لا تزيد عن ستة أشهر.

وفي الأردن صدر القانون رقم ٢٢ لعام ١٩٩٢ الخاص بحماية حقوق المؤلف، بعد أن كانت الحماية لهذه الحقوق، خاضعة لقانون حق التأليف العثماني.

وقد حذا القانون الأردني حذو القانون المصري في تشديد العقوبة على من يعتدي على حق المؤلف. أما شمول الحماية فقد

قصره على مصنفات المؤلفين الأردنيين والأجانب التي تنشر في المملكة، وعلى مصنفات المؤلفين الأردنيين التي تنشر خارج المملكة، «أما مصنفات المؤلفين الأجانب التي تنشر خارج المملكة فتراعى بشأنها الاتفاقات الدولية، ومبدأ المعاملة بالمثل» (المادة ٥٣ من القانون الأردني لحماية حقوق المؤلف رقم ٢٢ لعام ١٩٩٢).

والعمل جارٍ في بقية الدول على استصدار قوانين خاصة لحماية حقوق التأليف، بوصف هذا القانون دليلاً على مدى احترام الأمة للفكر، وتشجيعها على الإبداع.

ولكن، هل يمكن لغياب القوانين الخاصة بحماية حق المؤلف في دولة من الدول؛ أن يكون ذريعة للقراصنة تبيح لهم الاعتداء على حقوق الإبداع والتأليف؟

إن حق المؤلف في استغلال إبداعه حق طبيعي ثابت تحميه القوانين المدنية العامة، بوصفه حقًّ ملكية؛ محله المنافع، ومصدره (العمل)، فكما أنه يوجد عمالٌ يعملون بأيديهم، فهنالك مؤلفون يعملون بأفكارهم، ولكلٍّ منهما حق استثمار المنافع الناتجة عن عمله.

وإذا غابت النصوص الخاصة بحماية حقوق المؤلف في بلد، فعلى القضاء أن يسد هذا النقص معتمداً على النصوص العامة المتعلقة بحماية حق التملك في القانون المدني، وعلى مبادئ العدالة والقانون الطبيعي.

أما التشريعات والقوانين الخاصة بحماية حقوق المؤلف فإنما تصدر لتنظيم هذه الحقوق وليس لتقريرها.

٤ – ذريعة امتناع بعض الدول عن التوقيع على الاتفاقيات الدولية التي تحمي حقوق التأليف، مما يشكل إغراءً بالسطو على أعمال المؤلفين الأجانب:

وهذه ذريعة يتشبث بها لصوص الكتب، لاستباحة حقوق المؤلفين الأجانب، سواء أكانوا عرباً أم غير عرب. وكثيراً ما تلتبس هذه الشبهة على بعض المؤسسات الثقافية الرسمية، والمؤسسات التعليمية، الذين تغلب عليهم الرغبة بتزويد طلبتهم بأحدث المعارف الإنسانية، فيعمدون بنية حسنة، لا تشوبها شائبة الربح المادي، إلى أقصر الطرق، وأسهلها، وهو التصوير وإعادة الطبع، أو الترجمةُ للمؤلفات الأجنبية دون رجوع إلى

أصحاب حقوق النشر الأصليين، بل دون شعور بالحاجة إلى هذا الرجوع، والحصول على الموافقة، وهم على قناعة بأن امتناع دولتهم عن التوقيع على اتفاقيةدولية لحماية حقوق المؤلف، يبيح لهم الاعتداء على هذه الحقوق، ويلغي حرمتها.

وأنا أعتقد أن مبادئ الحق والعدالة لا تسمح بتوطين الحق، بحيث يكون الحق مصوناً في بلد، ومباحاً في خارجه، بل إن هذه المبادئ للحق الطبيعي والعدالة، في نظري، لا تسمح بمبدأ المعاملة بالمثل، الذي أخذ به القانون الأردني، فالحق حق وينبغي أن يكون مصوناً ومحترماً في كل مكان، ولو من طرف واحد، وإن الاعتداء على حقٌ في بلد ما لا يبيح حقوق جميع أهل البلد المعتدي لأهل البلد المعتدى عليه، خاصة وأن هذه الحقوق هي حقوق شخصية، والله تعالى يقول ﴿ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾[الأنعام: ٦/ ١٦٤].

مرةً، وكنت في معرض دولي للكتاب في بلد إسلامي، قال لي مسؤول كبير، وأنا أحاوره في مسألة ضرورة احترام حقوق التأليف للمؤلفين والناشرين الأجانب: إن بعض

الناشرين في البلاد العربية يزوِّرون كتبنا، فقلت له: هل إقدام لص في بلدٍ آخر على سرقة حق، يبيح لدولة إسلامية أن تسمح بالسرقة في بلدها؟.

وأياً ماكان الأمر، فإن مسألة التوقيع على الاتفاقيات الدولية لحماية حقوق التأليف، مسألة هامة وضرورية، ويجب أن تتداعى إليها كافة الشعوب والدول، وهي دليل على وعيها وعلامة على تقديرها للعلم والثقافة والموهبة والإبداع.

وقد انعقدت أول اتفاقية دولية لحماية حق المؤلف في التاسع من إيلول (سبتمبر) عام ١٨٨٦، وسميت (معاهدة برن الدولية لحفظ حقوق المؤلفين)، وقعت عليها كل من سويسرا وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وإيطاليا، ثم انضمت إليها دول عديدة.

كما قامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليكسو). بإعداد (الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف)، والدول العربية كلها مدعوة للتوقيع على هذه الاتفاقية والمصادقة عليها، وذلك تأكيداً على أن البلاد العربية تشكل وحدة ثقافية

واحدة، ينبغي لها أن تتضامن فيما بينها وتتعاون لصيانتها وتنميتها، بحيث يعد المزور المدان في أي بلد عربي مداناً يلاحق في أي بلد عربي آخر.

ثم تنطلق من هذه الاتفاقية العربية، للتوقيع على الاتفاقيات الدولية، تأكيداً لاحترامها للثقافة وتشجيعها للإبداع، وإسهامها في بناء الحضارة العالمية.

إن إحجامنا عن التوقيع على الاتفاقيات العربية والدولية لحماية حقوق المؤلف، سوف يكون مؤشراً على إفلاسنا الثقافي، ورغبتنا في أن نكون عالة على أفكار الآخرين، نعيش عليها واثقين من أن مفكرينا لايقدمون للعالم فكراً جديداً مفيداً، نخشى عليه من السطو.

إن تضامن التنظيمات المهنية للناشرين، هو السبيل الرئيسي لاستئصال شأفة القرصنة، فأنا أميل دائماً إلى تغليب لغة الواجبات على لغة الحقوق، وإلى تغليب وازع الأخلاق على ردع القانون.

كما أميل إلى اتهام الذات قبل اتهام الآخرين، وأثق بصدق قول الله تعالى: ﴿ أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها، قلتم أنى هذا؟! قل هو من عند أنفسكم﴾[آل عمران: ٣/ ١٦٥]. وبحتمية القانون الإلهي الذي يعبر عنه قول الله تعالى: ﴿ إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

فلابد أولاً من أن يرصّ الناشرون صفوفهم في اتحادات وتنظيمات قوية وناشطة وفعالة، تضع لهم الضوابط والمعايير اللائقة بشرف مهنتهم، وترسم لهم الخطط الملائمة لتطويرها وتنميتها، وتضم إليهم النافع، وتنفي عنهم الخبث. وتعلمهم

كيف يتحدون عبر التعدد، ويتعاونون عبر الاختلاف، ويتكاملون عبر التناقض، ويتفاضلون عبر التنافس.

ولابد ثانياً من أن يتواثق الناشرون فيما بينهم - ميثاق شرف - على أن يحترموا جميع حقوق الإبداع والابتكار والتأليف، وأن ينظموا علاقاتهم مع المؤلفين والمبدعين وفق عقود واضحة يلتزمونها، وأن يوثقوا روابطهم بهم على أساس من الثقة المتبادلة، التي يحكمها التكامل لا التناقض، فالناشر والمؤلف يقفان في خندق واحد في مواجهة التخلف الثقافي والضمور القرائي من جهة، وفي مواجهة تهديد القرصنة والتزوير من جهة أخرى.

وقبل أن يرفع الناشر صوته صارخاً في وجه المزوِّر، عليه أن يكون قد أدى ماعليه من حقوق تجاه المؤلف والمبدع. وأستميح الزملاء عذراً في أن أذكر لهم طرفة وقعت لي مع كاتب عربي كبير في بلد عربي ناءٍ، حدثه صديق أن كتاباً له قد زورته إحدى المكتبات، فأجاب في برود: وماذا يهمني من ذلك؟ لم يصلني من الناشر الأصلي الذي أبرمت معه عقد النشر شيء،

ولا حتى نسخة من الكتاب، فلا فرق عندي بين المزوِّرْين غير أن أحدهما مزوِّرٌ برخصة وعقد، والآخر مزوِّرٌ بلا إذن ولا عقد.

لا أريد أن أدخل في متاهة العلاقة بين المؤلف والناشر، ومايشوبها أحياناً من شوائب ربما يكون مصدرها الوهم والظنون. كل ما أريده أن يعمل الناشر على طمأنة المؤلف، إلى أن مصالحهما المادية مشتركة، وهمومهما الثقافية واحدة، فإذا استطاع الناشرون أن يبنوا اتحاداتهم على أسس متينة، وأن يبنوا علاقاتهم على ثقة متبادلة، وأن يرسخوا تقاليد مهنتهم وفق ميثاق ملتَزَم، فسيكون بوسعهم أن يفعلوا الكثير ليأخذوا على يد المسيء، بل ليأخذوا بيده إلى سواء السبيل، ويساعدوه على سلوك الطريق الصحيح، ولسوف تزكو المهنة على أيديهم وترتقي الثقافة بهم إلى معارج الحضارة.

وحتى لايكون هذا الكلام خطابياً أو مثالياً واهماً، فسوف أقدم فيما يلي سرداً لما يمكن لأي اتحادٍ فعَّال للناشرين أن يفعله لمواجهة قرصنة النشر ودرء خطرها:

١ً - إعداد ميثاق يوقع عليه جميع الأعضاء الناشرين،

ويتعهدون فيه باحترام حقوق التأليف والنشر، وبالتعاون لحفظها وصيانتها، وأن يكونوا عيناً للاتحاد ترقب كل تجاوز وتبلغ الاتحاد عنه، وأن لايتهاونوا في شيء من ذلك، لأن الاعتداء على حقوق أيٍّ منهم، يعنيهم جميعاً، فما يصيب أحداً منهم قد يصيب الآخرين ذات يوم.

٢ً - إعداد عقد نموذجي للنشر، يلتزم به الناشرون في علاقاتهم مع المؤلفين، يكون فيه شيء من المرونة متروك لاختيار المتعاقدين حسب طبيعة العلاقة بينهم.

٣ً - العمل على استصدار القانون الرادع لحماية حقوق الإبداع، وحث الدولة على التوقيع على الاتفاقيات العربية والدولية المتعلقة بهذه الحقوق، وذلك من أجل ضمان ملاحقة القراصنة داخل البلد وخارجه.

٤ً - العمل على تبسيط الإجراءات القضائية المتعلقة بدعاوى القرصنة، حتى لايتسنى للقراصنة الاستفادة من تعقيداتها وطول أمدها، مما يضعف من جدوى هذه الإجراءات في كثير من الأحيان، ويسبب الإحباط والملل لأصحاب

الحقوق، الذين يفضلون الأوبة بتحمل مُصابهم على الخوض في معركة طويلة الأمد؛ المزوِّر أقدر على خوضها، وأدرى - بحكم تمرسه واعتياده - بمسالكها ومساربها، وأكثر - لكونه من أصحاب السوابق - خبرة بطرق التعامل مع الأجهزة المكلفة بضبط جريمته، وطرق إخفاء المادة الجرمية وطمس معالمها.

٥ً - العمل على توسيع الصلاحيات الإدارية للمؤسسات ذات العلاقة المباشرة بالشؤون الثقافية، في وزارات الإعلام والثقافة وأجهزة الأمن والجمارك، كي تتمكن من الإسهام في منع ظاهرة القرصنة، قبل وبعد وقوعها.

٦ً - العمل على إلزام الجهات الرسمية التي تطلب الكتب سواءً بواسطة المناقصات أو العقود بالتراضي، باشتراط إبراز مايثبت موافقة الناشر الأصلي لهذه الكتب على تقديمها.

٧ً - تشكيل لجنة مُحَكَّمة في كل اتحاد للناشرين، تتكون من خبراء مهنيين، ويكون لها صلاحيات تنفيذية؛ ترفع إليها شكاوى التزوير، وتتولى التحقيق فيها، واتخاذ الخطوات والقرارات الملائمة بشأنها، والتي يمكن أن تبدأ بالتسويات الودية

مع التعهد بعدم تكرار الفعل، أو باتخاذ عقوبات مهنية بالطرد من عضوية الاتحاد، وبالتشهير، وبالمقاطعة، أو باتخاذ خطوات إدارية مع المؤسسات والوزارات المعنية، أو باتخاذ إجراءات قضائية من قبل المتضررين مدعومة من الاتحاد.

٨ً - تكوين مكتب قانوني يضم محامين قديرين، يتولى الدفاع عن حقوق الناشرين والمؤلفين، وملاحقة قضايا التزوير، وتقديم المشورة القانونية للاتحاد والأعضاء.

٩ً - تبني الاتحاد لقضايا التزوير، وتمويل الملاحقة القضائية بشأنها نيابة عن أصحاب الحقوق، واعتبار الاعتداء على حق أي ناشر اعتداءً على الناشرين جميعاً، وأن جريمة القرصنة موجهة للاتحاد قبل أن تكون موجهة لأحد أعضائه. ولها صفة الحق العام، الذي لايسقط بتنازل صاحب الحق عنه.

١٠ً - الاتصال بجميع الأطراف المعنية بإنتاج الكتاب، من مؤسسات الصف والتصوير والطبع والتجليد وأصحاب المكتبات، ومكاتب الشحن، ومصانع التغليف وإطلاعهم على مشكلات النشر، والتعاون معهم لاستئصال شأفة القرصنة، والعمل على معاقبة الذين يتعاونون مع القراصنة منهم.

١١ً - الاتصال مع محترفي التزوير الحاليين، ومحاولة إقناعهم بالعدول عن ممارساتهم الشاذة، وتأهيلهم لدور إيجابي في المهنة، والتزام ميثاق الناشرين، ومنع المسيئين منهم من ممارسة المهنة.

١٢ً - فتح سجل لكل ناشر، لتدوين مدى التزامه بحقوق المؤلف، وتسجيل شكاوى المؤلفين عليه إن وجدت، والتحقيق فيها، وتشجيع الناشرين الملتزمين، بإذاعة تجاربهم ومكافأتهم.

١٣ً - السعي لدى الجهات الرسمية المختلفة لمقاطعة من تثبت إدانته بجريمة الإصرار على قرصنة النشر.

١٤ً - إصدار نشرة عن الاتحاد تحكي نشاطه، وتعكس نشاط أعضائه وإصداراتهم، وتوجه مسارهم نحو الأفضل، وتبصرهم بحقوقهم، وتبين لهم المخاطر الناجمة عن جرائم التزوير.

١٥ً - توثيق الصلة بين الاتحادات، وتبادل المعلومات حول قضايا التزوير، وإصدار قائمة سوداء بأسماء المزورين، الذين يكررون فعلتهم، رغم تحذيرهم وتقديم النصح لهم.

١٦ً - توقيع اتفاق مع اتحادات الناشرين في كل البلدان، يؤكد التزام كل اتحاد في بلده، بملاحقة قضايا التزوير التي تثبت في بلد اتحاد آخر، وذلك نظراً للطبيعة المتشعبة لهذه القضية، فالتزوير ربما يقع في بلد الناشر أو في بلد آخر، وفي كلا الحالين سوفُ يصدَّر إلى البلدان الأخرى ولابد من تبني كل اتحاد لقضايا التزوير بوصفها اعتداءً على المهنة، بغض النظر عن موطنها.

١٧ً ـ العمل على إنشاء إدارة خاصة بحماية حقوق الإبداع، قد تكون تابعة لوزارة الإعلام، أو لوزارة الثقافة، أو للمكتبة الوطنية، أو لاتحاد الناشرين في كل قطر، تسجل لديها عقود النشر، ويعد هذا التسجيل توثيقاً لها، ويكون لهذه الإدارة صلاحية الفصل في الخلافات الناجمة عنها.

هموم ناشر عربي

أزمة إبداع

أولاً: مع التقاليد والأعراف

عندما أتكلم عن أزمة الإبداع، بوصفها هماً من هموم الناشر العربي؛ فإنما أعني بذلك عوزنا الإبداعي في مجال التأليف، وتقديم الجديد النافع من الأفكار..

ولئن كان (القصور في مؤسسات النشر)أحد عوامل هذا العوز الإبداعي، لما أفترضه في الناشر من دور قيادي في توجيه حركة التأليف بحكم رؤيته الشاملة، وقدرته على تحسس حاجات مجتمعه الثقافية، فقد سبق لي الحديث عن عجز الناشر العربي في معرض حديثي عن أزمته.

أما في هذا الفصل فسوف أركز على (المؤلف)، وعجزه عن الاضطلاع بالدور القيادي المعدّله، ومسؤوليته عن إطالة أمد (التّخلف) الذي تعاني منه أمته.. وتقصيره في إمدادها بالأفكار والمعلومات القادرة على إنهاضها..

أنا لا أجهل مدى المعاناة والصعوبات التي يواجهها

(المؤلف) في مجتمعات (التخلف)، التي تمزقها النزاعات الطائفية والقبلية والعرقية والسياسية. . تلك المعاناة التي تتمثل في أشكال الاحتواء والإغراء والاضطهاد والتدجين والسطو والتزييف والإلحاق والإعواز، التي يواجهها عبر سلسلة من الرقابات السياسية والاجتماعية والدينية، تقف له بالمرصاد؛ وتمنعه من الجهر بأي رأي مخالف. . فهو لذلك مكبل بقيود (الرأي السائد)، و(الثقافة المتعارف عليها)، لايستطيع منهما فكاكاً، ولايقدر على تجاوزهما. . فأي إبداع يمكن أن يتحقق في ظل الإرهاب الفكري أياً كان مصدره؟! وأي إصلاح يرتجى، إذا كان المؤلف ممنوعاً من تجاوز (الثقافة المتعارف عليها)؟!.

واقع كل أمة ثمرة لما تحمله من أفكار:

وحين ندرك أن (التخلف)، إنما هو ثمرة للثقافة السلبية المعششة في أذهاننا؛ فإن (الخروج من التخلف)، يقتضينا البحث عن رؤى جديدة خارج إطار ثقافتنا التقليدية التي أورثتنا التخلف. . . وهذا هو واجب (المؤلف). .

إن كثيراً من المؤلفين، ينظرون إلى هذه المعوقات من زاوية (الحق)، فهم لايستطيعون أن يعملوا وأن يبدعوا إلا حين يتوفر لهم المناخ الثقافي الملائم، الذي يقوم على حرية التعبير، واحترام الرأي المخالف، وإنهم بانتظار منحهم هذا الحق.. لا عليهم أن (يطبلوا) للفكر السائد، وأن (يصفقوا) للثقافة المسيطرة..

إنني أقدر كثيراً ظروف المؤلفين، التي تعوقهم عن الإبداع، وتلحق بهم كثيراً من الظلم والحيف والإهمال.. غير أني أنظر إلى هذه المعوقات من زاويةأخرى غير زاوية (الحقوق) التي ينتظرون أن تمنح لهم، حتى يبدعوا.. وأرى أن النظر إلى (الأمور) من زاوية (الحقوق)، يقود صاحبه إلى حمأة الكلالة والعجز، ويسوغ له (القعود)، وتمثيل دور (الإمَّعة)، الذي يقول: أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت وإن أساؤوا أسأت:

وينشد قول الشاعر العربي، دريد بن الصمة:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

الواجبات لا الحقوق :

إن (المطالبة بالحقوق)، تقتضي وجود طرفين؛ مطالبٍ بها ومانحٍ لها، ولابد أن ينتظر أحدهما الآخر، أما (أداء الواجبات) فإنه لايتطلب غير وجود طرف واحد، فالواجب مسؤولية ذاتية، يمارسها الإنسان من تلقاء نفسه، لاينتظر من أحد أن يأذن له بممارستها، بل هو يتحمل كل تبعاتها، مادام مقتنعاً بها، حتى إنه ليستعذب كل أذىً يصيبه في سبيلها . .

إن الواجب هو لغة (الأنبياء)، الذين لولم يكونوا يتقنونها لما نعمت البشرية بالهداية، بل هي لغة (الإنسان)، منذ أن تقبل حمل الأمانة، بعد أن رفضت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها: ﴿ إنا عَرَضْنا الأمانَةَ على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسانُ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢].

منهج الأنبياء :

وبهذه اللغة انطلق الأنبياء جميعاً . . . ينذرون أقوامهم، ويحذرونهم من مغبة الإخلاد إلى موروثاتهم وأعرافهم وتقاليدهم . . . وتتشبث الأقوام بأعرافها وتقاليدها بحجة أنها ثقافة الآباء وإرث الأجيال . . . ويتابع الأنبياء رسالتهم مبينين لأقوامهم أن الحق إنما يستمد قوته من العلم والعقل لا من الآباء والتقاليد . . . ويتحملون جراء إصرارهم وثباتهم كل ألوان العذاب والاضطهاد . . . ثم لاتكون العاقبة إلا للرسل . . ذلك قانون الله .

﴿ كذلك يضْرب الله الحقَّ والباطلَ ، فأما الزبدُ فيذهبُ جُفاءً، وأما ماينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٧] .

لنصغ إلى القرآن الكريم، يتلو علينا أنباء الرسل، ولنبدأ بإبراهيم :

﴿ إذ قال لأبيه وقومه : ماتعبدون؟ .

قالوا: نعبد أصناماً، فنظل لها عاكفين.

قال: هل يسمعونكم إذ تدعون؟ أو ينفعونكم أو يضرون؟

قالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون.

قال: أفرأيتم ماكنتم تعبدون؟ أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ فإنهم عدو لي إلاَّ ربَّ العالمين؛ الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين، والذي يميتني ثم يحيين، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين.

رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾.

[الشعراء: ٢٦/ ٧٠-٨٣].

لقد رفض إبراهيم ماكان يعبد قومه وآباؤهم الأقدمون، وسألهم: هل ينفعونكم أو يضرون؟ فكان النفع والضرر مدار حجته.. وتحمَّل بكل ثبات مسؤولية كلمته..

ولنصغ إليه ثانية يتلو علينا: ﴿ نبأ نوحٍ، إذ قال لقومه: ياقومِ! إن كانَ كَبُرَ عليكم مُقامي وتذكيري بآيات الله ، فعلى الله

توكلتُ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لايكن أمركم عليكم غُمة، ثم اقضوا إليَّ ولاتُنظِرون﴾ [يونس: ١٠/ ٧١]. . . إننا أمام أروع آيات الثبات، والتضحية، والتحدي. . رجل فرد يجهر بما يعتقده أنه الحق، ثم يكشف عن صدره، داعياً قومه أن يُجمعوا أمرهم وشركاءهم وكل أسلحتهم وعتادهم، ثم يأتوا ليقضوا عليه، مضحياً بنفسه في سبيل رسالته واثقاً أن كلمة الحق التي أطلقها مجلجلةً، لن تموت بموته، بل ستزداد قوة ومضاءً. . أيُّ ثباتٍ وأي تحدٍّ!!.

فإذا تابعنا رحلتنا مع الأنبياء إلى خاتَمهم محمد (عليه أفضل الصلاة والتسليم)، وجدنا منهج الأنبياء في الصدع بالحق، والقيام بالواجب، والصلابة في مواجهة الباطل، يتجلى في أروع مظاهره، في حياة الرسول وصحبه. .

ويكفي أن نصغي إلى الرسول ﷺ في أحلك أيام الشدة في مكة، يناجي عمه أبا طالب: « والله ياعم ! لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ماتركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ».

ويكفي أن نحدق في (بلالٍ) العبد الحبشي، الذي كان، في عرف المجتمع، رقيقاً فقد حريته، وسلعة تباع وتشترى، وقد طُرح أرضاً، في رمضاء مكة ولظاها، ووضعت الصخرة فوق صدره، لينطق بكلمة (الكفر)، فلا يقول - بكل تحد - إلا (أحدٌ . أحد) . . حتى إذا جف حلقه من الظمأ، وعجز لسانه عن النطق . حرك إصبعه لتنطق بديلاً عن لسانه (أحدٌ . أحد) .

يكفي ذلك لنرى كيف مارس بلال (العبدُ) واجبه في (التعبير) عن رأيه، من طرف واحد، بفعالية وتحدٍّ، لا يقوى عليهما (الأحرار)، بل إنه بذلك أصبح مثلاً للأحرار، يعلمهم أن ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦].

(المفكرون) ورثة الأنبياء:

إن (العلماء) هم ورثة الأنبياء . . وحريٌّ بهم أن يتبعوا منهج الأنبياء . .

ومنهج الأنبياء كما رأينا يقوم على حمل الأمانة، والشعور بالمسؤولية، والجهر بالحق، والبلاغ المبين، وعدم الإكراه في الدين، بل وتحمل كل أذى يواجههم به المتشبثون بالتقاليد،

والمسترسلون مع تفكير الآباء، والتضحية بأنفسهم في سبيل الكلمة . .

فهل لمفكرينا (الأحرار)، أن يقوموا بواجباتهم، من طرف واحد، على منهج الأنبياء، يصدعون بالحق الذي يؤمنون به، دون انتظار لمن يمنحهم الحرية في إبداء الرأي، وبأذن لهم بالتعبير عنه . .

هل لمفكرينا أن يستنفروا أذهانهم وأقلامهم على طريق الإبداع، ويشقوا طريقهم على محور التحدي . . يصارعون المناهج المعتمدة، والقناعات الراسخة، والتقاليد البالية، ويضيفون إلى تراث الأمة الفكري لبنة جديدة ثرة؛ تعبر عن جيل فذ معطاءٍ وفعال؟! .

أم أنهم سيخلدون إلى الراحة، ويعزفون لأمتهم من ألحان المسايرة والخنوع، مايعينها على أن تغط في نومها العميق، وتستسلم لأحلامها، غافلة عن عبث (المفسدين في الأرض) من حولها، بتراثها ومقدراتها، وبحاضرها ومستقبلها؟! .

ثانياً: بين الأصالة والانتحال

ثمة وجه آخر لأزمة الإبداع، تتمثل في المحاكاة والاقتباس

إن المؤلف لاينشأ في فراغ، بل إنه يتكون ضمن رحم ثقافي وفكري يعج بالأفكار والمعلومات، وبالمناهج وأساليب التعبير، وباللغة وطرق الأداء، يتغذى منها، ويتنفس من خلالها.. فإذا وُلد وواجه الحياة الفكرية، أصبح مسؤولاً بشكل ذاتي ومباشر عن توفير غذائه الفكري، ومناخه الثقافي، وعليه أن يشق طريقه، ويثبت ذاته، بوسائله الخاصة، بعد انقطاع الحبل السري الذي كان يمده بالغذاء والهواء سائغاً عبر المدرسة ومراكز التوجيه الثقافي والتربوي في المجتمع..

الولادة الفكرية:

إن هذه الولادة الفكرية للمؤلف لهي أشق المراحل التي يواجهها.. كيف يستطيع أن يبدع، وأن يحقق ذاته، وأن يميز نفسه، معتمداً على نفسه ووسائله؟!.

هل يستطيع أن يمارس نوعاً من القطيعة المعرفية، وينسى كل ماتزود به من المعلومات ليبدأ تكوينه الفكري، بتأملاته الذاتية، من نقطة الصفر، مستغنياً عن كل المعارف والخبرات والتجارب المتراكمة عبر الأجيال؟!.

لو أن أمه لفظته إلى الحياة في جزيرة نائية، وأوكلت مهمة إرضاعه إلى ظبية، وفرض عليه نأي الدار هذه القطيعة المعرفية، لأمكن لنا أن نتصوره مضطراً لإقامة بنائه الفكري من نقطة الصفر، كما فعل حي بن يقظان؟!.

لكن مؤلفنا لايواجه حالة (ابن يقظان)، بل إنه سوف يجد نفسه أمام مناهجَ فكريةٍ وأدبية راسخة، وأساليبَ فنيةٍ مستقرة، وأسماءٍ وعناوينَ ذاع صيتها وانتشر، ولابد له لكي يشق طريقه الخاص، من أن يبدأ بمحاكاة (الموجود)، والعمل على تطويره؛ حذفاً وإضافة، ونقضاً وإقراراً، ونقداً وحواراً. ولكي يتسنى له ذلك، لابد أن تكون لديه القدرة على استيعاب هذا (الموجود)، وعلى تحليله وتفكيكه ثم إعادة بنائه وتركيبه، مضيفاً عليه من ذاته وإبداعه، مايميز شخصيته، ويبرز فنه وإبداعه..

المحاكاة المشروعة:

إن محاكاة (الموجود)، يمكن أن تكون (اقتباساً) أو (نقلاً) أو (معارضة)، ولايجوز بحالٍ أن تكون (انتحالاً) أو (سرقة). .

فالإبداع؛ مبنىً كان أو معنىً، نصاً كان أو مضموناً، حق لمبدعه، تقتضي (الأمانة العلمية) أن ينسب إليه، وتسمح الأعراف والقوانين بالاقتباس والنقل معزواً إلى أصله، في حدود نسبٍ معقولة ضمن السياق الإبداعي للمؤلَّف الجديد. . لقد حفل تراثنا الثقافي بكثير من أعمال (التجميع) و(التلخيص) و(الشروح) و(الحواشي) و(النظْم) و(المعارضة)، وكان كل عمل ينسب إلى مؤلِّفه؛ فالمتن لمؤلِّف، واختصاره، أو شرحه، أو نظمه، أو معارضته، أو حاشيته لمؤلفين آخرين، يُذكر اسم كل منهم إزاء عمله، ويتكفل المسار الحضاري العام للثقافة بهضم هذه الأعمال وتذويبها في بوتقته، وإعطاء كل ذي حق حقه، بقدر ماتتضمن جهوده من إيجابية وإبداع وتجاوز، يندرج في إطار التطور والنمو الثقافي. .

لصوصية الكلمة:

ولم يخل تراثنا الثقافي من (السرقات الأدبية) التي كانت تبدو أكثر ماتبدو عند الشعراء في خطف معنى من شاعر، وتقديمه في ثوب مخالف، إلا أن حاسة النقد، وتماسك البنية الثقافية للأمة، كانت تقف بالمرصاد للصوص الكلمة، وسرعان ما تسلقهم بألسنة حداد، تبدد أوهامهم، في أن الأيام ستطوي سرهم، وأن الغفلة ستستر جريمتهم..

ولئن كان (لصوص الكلمة) الآن، يغتنمون فرصة غياب النقد، وركود حركة الأفكار، وهدوء المعارك الأدبية، وحالة الاسترخاء والخمول في العقول والأذهان، فإن الزمن لن يتوقف، وإن اليوم الذي يصحو فيه النائمون من سباتهم، وتنشط فيه العقول من خمولها لقريب، ولن يُغفر لهم آنذاك خيانتهم لأمانة الكلمة، وانتهاكهم لحرمة الإبداع، وحقوق التأليف..

صُوَرٌ من الانتحال :

وإن من صور السطو على الأفكار، واللصوصية الأدبية؛ أن يعمد أستاذ جامعي كبير، إلى تكليف طلابه بأعمال وأبحاث على سبيل التدريب، ثم ينسق بينها ويقدم لها، وينشرها حاملة اسمه دون أية إشارة إلى الجهود الحقيقية المبذولة فيها.

ومن الصور - كذلك - أن يعمد كاتب صحفي كبير، إلى تكليف كُتّاب ناشئين بموضوعاتٍ، يأجرهم عليها ثمناً بخساً، ويمهرها بتوقيعه، لتنشر باسمه، بحجة الشهرة التي يملكها ويفتقرون إليها. ومن طريف مايروى؛ أن صديقاً لصحفي بارز، اتصل به هاتفياً، يهنئه على المقال الرائع المنشور في صحيفة اليوم، فأجابه: يؤسفني أنني لم أطلع عليه بعد..

ليس عيباً، أن يحيط بالمؤلف النابغة، عدد من المحررين، يتلقفون أفكاره، ومحاضراته، وأحاديثه، ومجالسه، يختزلونها سماعاً، أو يفرغونها من أشرطة مسجلة، أو يجمعونها من الصحف، ثم يعمدون إلى التنسيق بينها، وتحريرها، وعرضها

على المؤلف الكبير، لتحمل اسمه بعد موافقته عليها، فذلك حقه، والفكر فكره، ولكلٍّ مايستحقه وفقاً للدور الذي يؤديه.

أما أن يقفز ثري أو متنفذ إلى صف الكتاب، ويتبوأ مقعداً بين كبار المؤلفين، ويغزر الإنتاج الذي يحمل اسمه، دون أن يكتب فيه حرفاً غير أحرف اسمه، فذلك عيب، وانتحال، وتنطع، وادعاء، وافتئات وافتراء.. و﴿لاتحسبن الذين يفرحون بما أَتَوْا، ويحبون أنْ يُحْمَدوا بمالم يفعلوا، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٨].

ممارسات خاطئة:

ومن صور الخيانة لأمانة العلم: (المداهنة) التي يلجأ فيها الكاتب إلى مدح من لايستحق المديح، أو مدح إنسان بما ليس فيه؛ طمعاً بماله، أو جاهه، أو نفوذه، و(الابتزاز) بذم من لايستحق الذم، لامتناعه عن العطاء بغير حق.. وفي تراثنا الثقافي كثير من هذه الممارسات الخاطئة، تعج بها أبوابُ المديح والهجاء في دواوين الشعراء، التي حَوَّلت الشعر والأدب إلى

وسيلة للتكسب، تحفل بالمبالغات التي تتفاوت حسب العطاء، فكانت بذلك جديرة بسخط الله : ﴿ والشعراء يتَّبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٢٤-٢٢٧] وهؤلاء المؤمنون الصالحون هم الشعراء الصادقون مع أنفسهم، الملتزمون بقضايا أمتهم، الذين يعبرون بشعرهم عن آلامها..

وهنالك المرجفون، والمشككون، والمهزومون، الذين انسلخوا من تراثهم، وتنكروا لثقافتهم، ويمموا شطر الثقافات الغازية، منبهرين بها، مشدوهين أمامها، مستسلمين لا متعلمين، ومقلدين لامجتهدين، وأتباعاً لا محاورين.. فهؤلاء كالبثرات في جسمٍ مريض، مايلبث أن يتخلص منها حين يستعيد عافيته..

ثالثاً : من المخطوط إلى المطبوع

الأغلاط اللغوية والإملائية :

لنأخذ نماذج منوعة مما تلقي به المطابع في يد القارئ العربي، فسنرى معظمها يمتلئ بالأغلاط اللغوية والإملائية وتناقض الأسلوب، وفوضى التبويب، وضعف الإخراج، وإهمال التوثيق، وقلة الفهارس، والاستخدام العشوائي لعلامات الترقيم.

ما أعنيه بالأغلاط اللغوية ليس هو ماقد يسهو عنه المصحح من أغلاط مطبعية، إنما أعني التهاون المقصود في ضبط القواعد اللغوية والإملائية، والاقتناع الذي ترسخ عند كثير من المشتغلين في صناعة (الكلمة) أن هذه الضوابط اللغوية، إنما محلها كتب اللغة، وبعض كتب الأدب والشعر. وبفضل هذا الاقتناع باتت صحافتنا ونشراتنا الإخبارية وكتبنا العلمية والمتخصصة خالية من كل الضوابط اللغوية، وبذلك اختلطت همزة القطع بهمزة الوصل، والألف المقصورة بالياء المنقوطة، والتاء المربوطة بالتاء

المبسوطة، وضاعت علامات الترقيم، واختلطت مواضع الوصل والفصل، ومواطن الزيادة والحذف في الكلمات، وشاعت الأخطاء على الأفواه بعد شيوعها في المطبوعات، وأصبحنا نسمع من يقرأ (الإقتصاد والإجتماع والإستقلال). . . هكذا بالقطع بدل الوصل، ويقرأ (القضات) بالتاء المبسوطة ويقرأ (المئة) (ماءة)، ويخطئ التمييز بين (على) الحرف و(علي) الاسم، وبين (عمر) و(عمرو). . . وبمزيد من الغفلة والتهاون سوف يتسع الخرق، وتزداد الهوة بين الفصيح والدارج المستعمل بعيداً عن القواعد والأصول.

من المسؤول عن هذه الفوضى اللغوية؟ أهو المؤلف؟ أم الناشر؟ أم المطبعة؟ أم حراس اللغة من المجامع والمؤسسات اللغوية والتربوية، واتحادات الكتاب، وأجهزة التحرير في المجلات الكبرى؟ هؤلاء هم الذين يشاركون في صناعة الكلمة، فمن منهم المسؤول عن هذا التردي؟ . . أقول التردي، لأننا لم نكن كذلك قبل عصر النهضة الحديثة. . . فإذا أخذنا صحيفة يومية صادرة في مطلع القرن على سبيل المثال، نجدْ في أخبارها اليومية متانة اللغة، وقوة الأسلوب، وصحة الأداء.

إن جميع الأطراف المشاركة في صناعة الكلمة مسؤولة.

لنبدأ بمجامع اللغة العربية التي انعزلت في أبراج عاجية، وقصور منيفة، وراء أسوار ومكاتب، نجد أنها لم تعد حارسة للغة، أمينة عليها، لأنها لم تبت متفاعلة مع الحياة، ولا ملبية لحاجاتها اليومية، ولم تستطع أن تواكب التطور العلمي السريع، ومصطلحاته المتزايدة، واكتفت بإصدار بعض الفتاوى والدراسات اللغوية، ولم تسهر على تطبيقها حتى في مطبوعاتها ومنشوراتها، فجاءت مطبوعاتها تحمل بعض العيوب، ولاتجري على أسلوب موحد. ومن هنا بدأ الانفصام اللغوي بين المناهج النظرية والتطبيق العملي... وعلى المجامع تقاس بقية المؤسسات المعنية بأمر اللغة.

ومعظم الكتاب والمؤلفين والمترجمين في مسائل الاقتصاد والقانون والفلسفة والعلوم البحتة والتطبيقية، قد أعفوا أنفسهم من التقيد بالقواعد اللغوية، تاركين هذه المهمة لزملائهم المختصين بالأدب واللغة، مقتنعين بأن المسألة مسألة اختصاص، فكل من الطبيب والمهندس وعالم الفيزياء ماعليه إلاّ أن يقدم

أفكاره العلمية بأي صيغة، وضمن أي قالب، حتى لو كان نصفه بالدارجة، ونصفه بلغة أجنبية، فمسألة اللغة لاتعنيه، وحسبه ماحصَّل من معلومات في اختصاصه!!.

أما المطبعة، فقد عدّت نفسها أداة نقل أو آلة تصوير، لاتحس بأي مسؤولية عن الموضوع الذي تصوِّره، سوى ماقد يَكتشف لها من تشويه في الصورة عن الأصل المقدم لها، فحينئذ تثور المنازعات لتحديد المسؤولية عن الأغلاط المطبعية، هل كانت في الأصل، هل تنبه لها المصحح في إحدى تجارب الطبع وأهملت المطبعة تصحيحها؟ هل كانت صحيحة في التجربة النهائية التي وافق عليها المصحح ثم أضافتها المطبعة نتيجة غلط مجاور، صححته، ثم بدلت به ماهو أفدح وأعظم؟ وينتهي الأمر بصدور وريقات للتصويب، تنبه لما قد يخفى على القارئ اللبيب من الغلط.

وأما الناشر، فهو وسيط خير بين المؤلف والقارئ، لا علاقة له بالكلمة التي ينشرها، وما عليه إلا أن يتخيّر لقارئه الموضوع المثير الرائج، أما قيمته الفكرية فليس تقديرها مما

يخصه. وأما أسلوبها وقالبها اللغوي فأمر متروك للمؤلف، يدفع إليه تجارب الطبع ليصححها، ويسم آخرها بتوقيعه مشعراً بموافقته على الطبع.

والقارئ أخيراً يأخذ مايقدم إليه، وكثيراً ماتراه ينحي باللائمة على المطبعة لكثرة مايتوقف أثناء قراءته أمام كلمات محرفة أو مصحفة أو مطموسة، يستنفر لها ذكاءه ولبابته ليردها إلى صوابها، إن لم يقف حائراً أمام صفحات بيض ناصعة أو ناقصة أو مبدلة، يتميز غيظاً لانقطاع فكرة يود لو اكتملت، ومسألةٍ غامضة يود لو اتضحت.

وربما توجه القارئ بلومه إلى المؤلف لغموض في الأسلوب أو ضعف في الأداء، وربما توجه بلومه إلى الناشر، لتفاهة الموضوع، وغلاء الأسعار، لكن لومه لايعدو الهمس بينه وبين نفسه، فالفكر عندنا غير متداول، وخاصة في غياب النقد، وهدوء المعارك الأدبية والنقدية التي كانت تحتدم إبان عصر النقد والنقاد.

وما هكذا كان علماؤنا المتقدمون، فلا الرازي ولا ابن سينا ولا الخوارزمي قد أعفوا أنفسهم من إتقان اللغة، حيث كتبوا في الطب والفلسفة والرياضيات.

وكان ناشرو وطابعو النصف الأول من القرن الحالي على درجة من العلم، تمكنهم من المحافظة على سلامة الأداء اللغوي وتنقيح منشوراتهم بما يتفق مع قواعد اللغة. . فإذا كنا نريد صادقين أن نسترد وعينا اللغوي، وننقذ لغتنا من التردي، وأجيالنا القادمة من الضياع، فعلينا جميعاً، مؤسسات ومؤلفين وناشرين وطابعين وقراء، أن نتحمل مسؤولياتنا من جديد، وأن يضطلع كل منا بدوره في النهوض بها.

المسؤولية اللغوية بين المؤلف والناشر:

ولقد سبق أن تحدثت عن واجبات الناشر في تنقيح المخطوط وتصحيحه وضرورة وجود قسم للتحرير في كل دار للنشر تتولى المحافظة على سلامة النص من حيث القواعد الإملائية واللغوية، وعلى وحدة الأسلوب، وما دمت أتحدث عن الهموم، وأعالج الأمور من زاوية الواجبات، فلا حرج أن أذكر المعاناة التي يواجهها الناشر مع النص المقدم له من قبل المؤلف..

ذلك أن المؤلِّف الذي كابد طويلاً وسهر كثيراً، لإعداد مؤلَّفه؛ يكون قد استنفد جهده في إعداد مسودة هذا المؤلف، ولا يطيق أن يعود إليه لمراجعته وتنقيحه وضبطه، بل هو يسارع إلى دفعه إلى الناشر، مؤجلاً كل ذلك إلى تجارب الطبع، التي تتيح له أن يصلح كل غلط، ويقوِّم كل خلل، ويستكمل كل نقص كان قد تركه في الهوامش وفي العزو إلى المصادر، أو في تحديد سنة ولادة ووفاة، أو حتى في اسم مشتبه عليه، أو معلومة لم يكن متأكداً من صحتها، وفي التبويب والتفريع، وفي التقديم

والتأخير، وفي الفهارس. . يفعل ذلك مطمئناً إلى أن الكتاب لن يصدر عن الناشر إلا بعد أن ينظر طويلاً في هذه التجارب، ويكرر النظر فيها مرتين أو ثلاثاً أو أكثر، وفي كل مرة يضيف مايحلو له، ويعدل مايعنُّ له تعديله، دون أي مبالاة بمعاناة (الراقن) الذي يرقن المخطوط، ويتعب في إخراجه، ثم تأتي التعديلات الطارئة فتضطره إلى إعادة عمله من جديد، وفي ذلك مافيه من استهانة بالجهود، وهدرٍ للطاقات، وضياعٍ للوقت والمال. . . يفعل ذلك كله، بوصفه المسؤول الوحيد عن تصحيح كتابه، ملغياً كل دور للناشر، الذي أعفى نفسه بدوره من هذه المهمة وألقاها على عاتق المؤلف.

المخطوط مسؤولية المؤلف والمطبوع مسؤولية الناشر:

إنني أدعو المؤلف أن يتخلى عن تصحيح كتابه، تاركاً ذلك للناشر، وأن يحْصر اهتمامه، ويوجه جهوده كلها لإعداد المخطوط:

١ً - لأن المؤلف لايصلح لتصحيح كتابه، لأنه بحكم تأليفه له، سوف يقرأ مافي ذهنه أكثر مما يقرأ مافي الكتاب، وسوف تقفز عينه على السطور، متجاوزة بعض الأخطاء في الكلمات، دون أن تتوقف عندها.

٢ً - لأن المخطوط، مهما بذل المؤلف في إعداده من جهدٍ، فسيبقى بحاجة إلى تنقيح من قبل محرر بصير، يعمل لدى (الناشر)، وينقح ماندّ عن المؤلف من أخطاء لغوية وإملائية، ويعتني بعلامات الترقيم، وربما نبه المؤلف إلى بعض النواقص لإكمالها.

٣ً - إن إلقاء مسؤولية التصحيح على عاتق الناشر، سيتيح الفرصة لتوحيد القواعد الإملائية في الكتب الصادرة عنه، بينما

كانت تتفاوت حسب المؤلفين، واختلافهم بين الإملاء المصري والإملاء الشامي، وإهمالهم في أغلب الأحيان للهمزات.

٤ً - كما إن ذلك سيتيح الفرصة لحسن استخدام علامات الترقيم، حسب دلالاتها، بينما كانت مختلفة حسب أمزجة المؤلفين، الذين غالباً مايستخدمونها للزخرفة والتزيين، دون مراعاة لدلالاتها، وخاصة الأقواس المفردة أو المزدوجة أو المضلعة، والفواصل المهملة أو المنقوطة.

٥ً - كذلك فإنه سوف يكون دافعاً للمؤلف للعناية بمخطوطه، وبذل قصارى جهده في مراجعته، واستكمال نواقصه، وتحسين خطه وتوضيحه، خشية الالتباس، طالما أنه لن يرى كتابه بعد تسليمه المخطوط للناشر إلا مطبوعاً.

٦ً - ولئن كان المؤلف يعمد أحياناً إلى (رقن) مخطوطته على (الراقنة)، لتقديم النص واضحاً للناشر، فأغلب ظني أنه - في عصر الكومبيوتر - ومع تزايد الإقبال على استعماله، سوف يعمد إلى الاستغناء عن الورق، والتأليف مباشرة على الحاسب

(الكمبيوتر)، وإجراء التصحيحات اللازمة، ومن ثم تسليم كتابه إلى الناشر على (قرص) يوفر عليه عناء (الرقن).

٧ً - وأخيراً إنني لعلى يقين من أن المؤلف سيكون سعيداً بهذه الخطوة، عندما تترسخ ثقته بإمكانيات الناشر، وكفاية أجهزته البشرية للقيام بدور المصحح.

هموم ناشر عربي

أزمة قراءة

أولاً: موقعنا من (القراءة)

حوار مع الذات

ربما يخيل إليك، عندما تشاهد جمهوراً يتدافع على أبواب معرض لكتاب، ويتزاحم بين أجنحته، (أننا نقرأ) . . .

لا أريد أن أشوهِّ، منذ البداية، جمال هذه الصورة التي تنم عن اهتمام بالقراءة وإقبال عليها، وشغف بها، وشوق إلى المعرفة، ونهم إلى التهامها، ورغبة في الاستزادة منها . .

لا أريد لهذه الصورة الرائعة في جمالها، المتألقة في حسنها، العظيمة في دلالاتها الحضارية، أن تهتز، بل إنني لأتمنى لها أن تنمو وتتكامل وتزداد تألقاً وعطاءً . .

وإنني، من أجل المحافظة على نقاء هذه الصورة الحبيبة إلى نفسي، أدافع تساؤلات متلاحقة، تقفز إلى ذهني فأتجاهلها . . تساورني فأهرب منها . . وهيهات!! هيهات للهواجس أن تكف عن ملاحقتك، مهما أوصدت في وجهها الأبواب، وغَشَّيتَ

عينيك عن بريقها اللامع، وأوقرت سمعك عن صراخها المُلِحِّ؟! إنها كالسيل العرم.. تمتلك من القدرة ماتحطم به السدود، وتخترق الحجب، وتبدد الأوهام.. ما إن تستوعب موجة منها حتى تفاجئك أخرى أكثر منها عتواً، تفسد عليك طمأنينة نفسك، واستمتاعك بأحلامك، وتسلمك إلى بحار الريبة والتشكك، تتساءل: تُرى! أهذه الهواجس وحيٌ من نور الفطرة الخيِّرة، أم هي وساوس من الوسواس الخناس؟

وأمام هذه الصورة الحضارية الرائعة من تزاحم الناس على أبواب معارض الكتاب، تتسرب التساؤلات، هامسة مرة، وهادرة أخرى:

- أتظن أن كل هؤلاء، قد جاؤوا شغفاً بالقراءة، وحباً بالمعرفة، ورغبة بالاستزادة من العلم؟!

ألا ترى بعضهم يتسكع بين الأجنحة، قد ضرب مع أصدقائه مواعيد لتزجية الوقت في أمسيات (المعارض)، والاستمتاع برؤية الزوار من كل جنس ولون، دون أن يجشموا

أنفسهم عناء النظر فيما أتعب العارضون أنفسهم في إبرازه ولفَت النظر إليه، من عناوينَ عكفوا على إنتاجها طيلة العام؟

وحتى أولئك الذين يزورون المعرض من أجل الكتاب؛ أتراهم قراءاً فعليين؟

ألا ترى أماً قد اصطحبت أطفالها؛ تشتري لهم- إن اشترت - مايستهويهم من لوحات وصور أقرب ماتكون للألعاب المستهلكة منها للكتاب ؟! وزائراً يحمل قائمةً بكتبٍ أُرسل لشرائها، لايرصد جديداً، ولا يبالي موضوعاً، ولايلتفت إلى معروض؟! وآخر يحمل مقاييس لفراغات في مكتبة المنزل، ينشد لها مجموعات مناسبة تملأ فراغها، وتضفي عليها لمسةً تزيينية تلفت الانتباه؟ وثالثاً يقلب بصره في الكتب بنظرة عابرة، توهِمُ أنه من القراء المثقفين، ويمضي دون أن يثبت في ذهنه أيٌّ من العناوين؟!

• إنني أرى ذلك كله. . وإنه ليثلج صدري، أن تكون معارض الكتاب ملتقىً للأحباب، فاختيارهم لهذا المكان - على

وفرة أمكنة التسكع والاستمتاع - ليدل على مَيلهم للثقافة، واستمتاعهم بأجوائها . .

وأن تصحب الأم أطفالها لمعرض الكتاب . . فتستقرَّ صورته في ذاكرتهم، مكاناً محبباً، يألفونه، ويشتاقون إليه . .

وأن يزور المعرض: طالبٌ لكتب بعينها، وقارئ (الديكور) المتباهي، وقارئ (العناوين) المتفاصح، والباحث عن السعر الأرخص، أو الطبعة الأفضل، أو الغلاف الأكثر أناقة . . فذلك كله ينم عن اهتمام بالكتاب وبالقراءة، مهما تضاءلت نسبته، أو اختلفت دوافعه، فلسوف ينمو ويتحسن بمرور الزمن، وبالشعور بمتعة (القراءة) . .

- لابأس أن تقتنع بعالم معارض الكتاب، وتستأنس بما يخيم عليه من أجواء العلم والثقافة، مهما يكن حصاده القرائي، وحصيلته المعرفية . . ولكن، ماذا خارج جدران المعرض؛ خلال أيامه التي لاتجاوز العشرة، أو بعد انتهاء أيامه العشرة؟!

كم هي نسبة زوار المعرض إلى سكان المدينة التي تقيم فيها؟!

إن (القارئ) هو الذي يشعر بالحاجة إلى كتاب يقرؤه، كما يشعر (الجائع) بالحاجة إلى طعام يأكله، ولابد له من أجل الحصول على غذائه الفكري من ارتياد المكتبات بحثاً عن (الكتاب المنشود)؛ سواءً منها مكتبات البيع إذا كان يريد الشراء، أو (المكتبات العامة)، إذا لم يكن يريد الاقتناء، أو لم يكن يستطيعه. . فكم هو عدد رواد المكتبات؟ وكم تبلغ نسبتهم إلى عدد السكان؟!

ولنعكس الأمر، فنتساءل عن عدد أولئك الذين لايفكرون في حياتهم بارتياد (المكتبات) لاقتناء الكتب أو لمطالعتها؟! هل يمكن أن تهبط الكتب عليهم من السماء؟!

وإذا هبطت، وألفَوْها بين أيديهم، هل ستتحرك في نفوسهم الشهية إلى مطالعتها؟!

ولنمض مع أولئك الذين لانجد لديهم الرغبة في المطالعة. . نبحث عن سويتهم العلمية، فنجد أكثرهم من حملة الشهادات العلمية العالية، أي أنهم متعلمون وليسوا أميين، كانوا

ذات يوم يقرؤون على مقاعد الدراسة، ثم تركوا القراءة المدرسية متوجهين إلى الحياة العملية. . نسألهم عن سبب إهمالهم القراءة، فيتعللون بالانهماك بالعمل، وبضيق الوقت. . نرقبهم في أوقات فراغهم، في إجازاتهم وعطلهم، في منتدياتهم وأسمارهم، في أوقات الانتظار الميتة التي لابد لهم من قضائها، فلانجد للكتاب والقراءة أي نصيب فيها، بل ربما وجدنا فيها نصيباً لكل شيء إلا الكتاب. . إنه العزوف عن القراءة، يمارسه مثقفون، متعلمون، كانوا يقرؤون، ثم اعتراهم الصدأ، فأصبحوا (قراءً صدئين).

● تساؤلات، أعترف أنني كنت عاجزاً عن مدافعتها، وأنها - إن لم تستطع أن تشوه في نفسي صورة التدافع على أبواب معرض الكتاب، التي أعشقها - فإنها أقلقتني. .

إنني لا أملك إحصاءات كافية عن عدد العناوين، ولا عن عدد النسخ التي تنشر سنوياً في العالم العربي، ولا عن نصيب كل فرد من هذه النسخ. . وربما كان من الخير لي أن لا أعرف، حتى لا أصدم أو أصاب بالذهول. .

كل الذي أعرفه، أن هذه الإحصاءات في العالم المتقدم، تقدم بانتظام، وعلى ضوئها تتم معايرة المستوى الثقافي للشعوب، وترسم السياسات التربوية لها، وتقوم الدنيا وتقعد إذا لوحظ من خلالها خلل. .

لقد اهتزت أميركا يوم أن سبقها الروس في إطلاق قمرهم الصناعي الأول، وتداعى الخبراء للبحث عن أسباب الخلل، فأجمعوا أن الخلل إنما جاء من هبوطٍ في (القراءة)، وحشدوا كل إمكاناتهم التربوية لسد هذا الخلل.

وفي العام الماضي، لاحظ الفرنسيون خللاً أدى إلى هبوطٍ يسير في نسبة القراءة عند الشعب الفرنسي، فنظموا مهرجاناً أطلقوا عليه اسم (جنون المطالعة)، نزل فيه وزير الثقافة، وكبار المؤلفين الفرنسيين، وكل المعنيين بشؤون الثقافة، إلى الشوارع، والساحات العامة، والحدائق، وفتحوا أبواب المكتبات العامة على مصراعيها أمام الجماهير، وأخذوا يقرؤون لها، ويحثونها على القراءة، في محاولة لرأب الصدع وسد الخلل.

(القراءة) عندهم هي كل شيء، وقبل كل شيء، وهي عندنا لاشيء.. ولا حاجة بنا إلى الإحصاءات، فكل ماحولنا يشير إلى أننا أمة أمية لاتقرأ.. أزماتنا المستحكمة.. هزائمنا المتلاحقة.. صراعاتنا الداخلية.. تفرق كلمتنا.. عوزنا المعرفي.. فقرنا الاقتصادي.. كل ذلك يشير إلى مصدر الخلل عندنا ألا وهو أزمة القراءة، فالقراءة أولاً.. والكتاب هو نقطة البدء..

إننا نعيش عصر المعلومات.. الذي لم تعد الأمم فيه تقاس بمقدار ماتملك من السلاح، ولا ماتملك من الثروات، بل بمقدار ماتملك من المعلومات.. والمعرفة فيه هي المورد الأساسي للتنمية.

وإننا نواجه نظاماً عالمياً جديداً، يحتكر المعرفة، ويخطط للسيطرة علينا من خلال تجهيلنا، وتمزيق صفوفنا، والمحافظة على دَوْرِ (الكلالة) المرسوم لنا، والذي يتمثل في أن نستمر في بيعه موادنا الأولية بأبخس الأسعار، وشراء منتجاته بأعلى الأسعار، وقد أصبحت منتجاته تأتينافي صناديق سوداء،

لايسمح لنا بفتحها، لجهلنا بتفاصيلها الدقيقة والمعقدة التي يحتكرونها لأنفسهم، ولايريدون أن يزعجونا بمحاولة فهمهما، بل هم يغروننا باستهلاك منتجاتهم ذات التكنولوجيا المعقدة، بكل بساطة، وما علينا إلا أن نضغط على الأزرار ونذير المفاتيح، وهو أمر أصبح في مقدور أطفالنا أن يمارسوه منذ نعومة أظفارهم في عامهم الأول، فإذا صادفتنا صعوبة ما في التشغيل استوردنا لها قطع الغيار وبرامج الكمبيوتر في علبها السوداء، دون أي عناءٍ، سوى دفع الفواتير الباهظة ثمناً لراحة البال، نتسلى بقول الحطيئة:

دَعِ المكارم لاترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وربما خيل إلينا، أن الله سخر لنا هؤلاء المنتجين لخدمتنا، غير أننا سنصحو يوماً على سياط (التاريخ) تلهب ظهورنا، وعلى سنة الله التي تعاقب كل من يعطل نعمة (العقل) الذي أنعم الله به عليه، وعلى قانون الله تعالى: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ للإِنْسانِ إلا ماسَعى، وأن سعيه سَوْفَ يُرى، ثم يجزاه الجزاءَ الأوفى ﴾ [النجم: ٥٣/ ٣٩-٤١].

ثانياً: كيف ندخل (عصر المعلومات)

لانملك عقاقير طبية، ما إن نتجرعها حتى تتفتق قريحتنا عن معلومات غزيرة تؤهلنا للدخول في عصر المعلومات، مع باقي الأمم.

ولا نملك عصا سحرية، ماإن تلامس ظهورنا، حتى تنطلق عقولنا متحررة من قيودها التي تكبلها، وتعملَ في سباقٍ حثيث على سد الفجوة التي تفصلنا عن العالم المتقدم أو الآخذ بالتقدم.

إنني لا أومن بالتكديس سبيلاً إلى التحضر، ولا أتوقع لمجتمعٍ متخلفٍ أن يخرج من أزمة تخلفه، بتجميع منتجات حضارة الآخرين، وأن يستمتع بقطف ثمار أشجار لم يغرسها ولم يتعهدها، وحصاد محصولٍ لم يبذره، وما أظنه يمتلك القدرة على القفز إلى أعلى درجات السلَّم، دون أن يكلف نفسه عناء ارتقائه درجةً درجةً، كلٌّ منها تسلمه إلى الأعلى منها، فإن هو فعل ذلك، وبدأ تسلقه السلَّم من رأسه، فلسوف ينحدر به

درجةً درجة حتى يبلغ به الحضيض، ورأسه منكوس إلى أسفل، وقدماه إلى أعلى، ولن يسمع صوته أحد، شأنه شأن نافخٍ في البوق من طرفه العريض. .

ثم إنه لن يحسن استخدامَ هذه المنتجاتِ المكدسة لديه، فإن لهذه المنتجات تربتها التي نشأت فيها، ومناخها الذي تنفست من خلاله، وبيئتها التي ترعرعت وسطها، ولن يستفيد منها إلا الذي نشأ في بيئتها، واستنشق العبير ذاته الذي استنشقته. .

ولقد سمعتُ المفكر الجزائري الكبير المرحوم مالك بن نبي، يختتم محاضرة له ألقاها في جامعة الخرطوم عام ١٩٦٩ (بُعَيْدَ النكسة)، وكان موضوعها: (تكديس منتجات الحضارة، لايولد حضارة، بل الحضارة هي التي تلد منتجاتها). . سمعته يختتم محاضرته بقوله: « لذلك فإن الأسلحة التي تكدست في أيدينا عام ١٩٦٧، أبت أن تطيع غير صانعيها ». . فالتهبت يومَها أكف خمسة آلاف مستمع بالتصفيق، لقربهم من الحدث، ثم تبلَّد الشعور بعد ذلك. .

وأود أن أضيف إلى فكرة بن نبي - استطراداً - أن المنتجات المكدسة، إذا كانت ترفض إطاعة غير صانعيها، فكيف يمكن أن تطيع غير قارئيها، وأقصد بذلك، أن عزوفنا عن القراءة، كان مستحكماً لدينا وشاملاً. . حتى كتيبات التعريف التي تصحب الأجهزة التي نشتريها، لانكلف أنفسنا عناء قراءتها، وكثيراً مانكتفي بضغط الأزرار وإدارة المحرك، وما أكثر مانكتشف بعد سنوات من استخدامنا الأجهزة، إمكاناتٍ كبيرة لها، أهملنا استخدامها، ولو فعلنا لوفرنا على أنفسنا كثيراً من الطاقات والأوقات المهدورة. .

والآن رغم عدم إيماني بتكديس المنتجات، فسوف أقبل -بشروطٍ - تكديسَ المعلومات، على أساس أنها - بذاتها - ثروة، وأنها قابلة للاستثمار ذات يوم، كما سبق أن قبلت بتكديس الكتب في مكتبات المنازل، والمكتبات العامة، على أمل أن يأتي من يستفيد منها ذات يوم. .

فما هي هذه الشروط التي تجعل من تكديس المعلومات أمراً مجدياً ومفيداً لنا؟ . . إنها :

١ً - بناء المؤسسات المعلوماتية، على كل المستويات؛ من المراكز العلمية إلى المؤسسات الإدارية والمهنية، إلى الأفراد، وعكوفها على البحث وتجميع المعلومات من كل صوبٍ؛ غائرٍ في الزمان، وممتدٌّ في المكان . .

٢ً - بناء قواعدَ ميسرة ومجدية للتصنيف والفهرسة، وتوحيد وتعميم رؤوس الموضوعات، ومكانز المعلومات لكل فروع المعرفة، وتكشيف حصيلتنا المعرفية على ضوئها . .

٣ً - استخدام أحدث أجهزة التخزين المعلوماتي، التي تتيح استيعاب أكبر كمية ممكنة من المعلومات، في أقل حجم ممكن من الأقراص، ثم استرجاعها بحسب الطلب في أقصر وقت ممكن . .

٤ً - استخدام أفضل وأسرع وسائل الاتصال، وإقامة الشبكات الفعالة والمتشعبة لنقل المعلومات وتغذيتها من جهة، ولاستثمارها وتوظيفها من جهة أخرى .

ثالثاً: القراءة أولاً

ولكن. . ألست معي، أخي القارئ! في أن القراءة هي حجر الأساس، وهي نقطة البدء في أي مشروع معلوماتي؟!

كيف يمكن تجميع المعلومات لدى شعب لا يقرأ؟؟

وأنى له أن يستثمر هذه المعلومات ويستفيد منها إذا كان عازفاً عن القراءة؟!

إن عصر المعلومات. . ثورة تقوم على أساس الإعلاء من شأن المعرفة، والارتكاز على الموارد الذهنية، بوصفها المصباح الذي يكشف للإنسان الطاقات التي سخرها الله تعالى له في هذا الكون. . وتقترب بالإنسان أكثر فأكثر من الغاية التي خلقه الله تعالى من أجلها ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢]، ومن المهمة الجليلة التي انتدبه لها ليكون خليفته في الأرض ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرضِ خليفة ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠]، ومن ثقة الله

بأنه، باستخدامه لعقله، وتوسع مداركه، سوف يكف عن الفساد وسفك الدماء ﴿ قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠]، ومن الاضطلاع بالمسؤولية التي حمله الله تعالى ﴿ ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم، إن السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٦]، ومن استجابته لأمر الله تعالى له بالقراءة منطلقاً إلى الحضارة والكرامة ﴿ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ﴾ [العلق: ٩٦/ ٣-٥].

وثورة المعلومات، لا تخص طبقة من العلماء، ولا شريحة من المجتمع، ولا جيلاً دون جيل، إنما هي روح يسري في جسد الأمة؛ أفرادها ومؤسساتها، صغارها وكبارها، عامتها وعلمائها. .

وهكذا نجد الفرد في العالم المتقدم، وثيق الصلة بعالم المعلومات، يسهم في بنائه، بقدر ما يستثمر من طاقاته. . فهو يستطيع، فضلاً عما تتيحه له أنظمة المعلومات في المؤسسات التي

ينتمي إليها، أن يشترك في أي نظام للخدمة المعلوماتية، يضم ملايين من المشتركين في أنحاء العالم، يوفر لكل منهم، فرص الحصول على المعلومات، في أي اختصاص يشاء، وفرص التحاور مع الآخرين، من كل جنس ولون ودين، وتبادل الرأي مع من يعرف أو لايعرف منهم، وقد تنشأ علاقات حميمة وطويلة الأمد بين اثنين من المشتركين، يتخاطبان كل يوم، من خلال الحاسب (الكمبيوتر)، دون أن يعرف أحدهما الآخر وجهاً لوجه، بل ربما تفصل بينهما مسافات شاسعة على الأرض. .

ربما تكون مثل هذه الخدمات المعلوماتية آمالاً بعيدة المنال في مجتمعاتنا، عسيرة التحقيق في وقت قصير، فلا أقل من أن تقوم بذلك مؤسساتنا على أوسع مدىً، وفي أقصر وقت. .

أراني قد ابتعدت عن عالم (الكتاب) و(القراءة)، وأوغلت في عالم الحواسب والمعلوماتية. . ولكن هل الكتاب أو الحاسب إلا وسيلة من وسائل اختزان المعلومات؟ وهل القراءة

إلا وسيلة من وسائل استثمار هذه المعلومات والاستفادة منها؟!..

وسواءً أكانت القراءة في صفحات الكتاب، أو على شاشة الحاسب، فإن المهم، هو إثارة الرغبة في القراءة؛ وتعويد الناس على المطالعة؛ وبذل كل الجهود من أجل تكوين مجتمع قارئ، متعطش إلى المعرفة، يهلل لمن يراه مقبلاً عليها من أفراده، ويقيم لهم المسابقات، ويجزل للفائزين منهم الجوائز، ويفتح لهم آفاق المستقبل، ويتقزز بل ينظر شذراً إلى العازفين عن القراءة، المنصرفين عنها إلى سفاسف الأمور، حتى تصبحَ المطالعةُ سمةً من سمات المجتمع، تطبعه في منتدياته، وفي الأحاديث المتبادلة بين أفراده، وتخلق فيه المناخ الثقافي الملائم لنمو المعرفة، وبزوغ عصر العلم والمعلومات.

وفي مثل هذا المجتمع القارئ، سوف نرى بوضوح الدور الكبير الذي يمكن للوعي القرائي الناقد أن يلعبه في توجيه الثقافة، وتنمية روح الإبداع، وفي توظيف المعلومات، واستثمارها على الوجه الأفضل..

همـــوم ناشـــر عـــربي

أزمـــة تســـويق

أولاً: التسويق بين المؤلف والناشر

• عشر سنوات مضت، دون أن تنفد نسخ الطبعة الأولى من الكتاب والتي لاتزيد على ألف وخمس مئة نسخة . . أليس هذا عجباً؟! العالم العربي بطوله وعرضه وملايينه التي أربت على المئة يعجز خلال عشرة أعوام عن امتصاص ألف وخمس مئة نسخة من كتابٍ أفنيت في تأليفه شهوراً من عمري، ألا يثير ذلك دهشتك واستغرابك؟!

• كم أمضني وآلمني مثل هذا السؤال، الذي يتردد على فم كثير من المؤلفين، الذين أشهد أنهم على درجة عالية من العلم، وأن مؤلفاتهم على درجة كبيرة من العمق والإبداع . .

وتساؤل آخر كثيراً مايطرحه المؤلف في صورة حث للناشر على توزيع الكتاب: «لقد سألني كثير من أصدقائي وتلامذتي: أين يمكن أن يجدوا كتابي الذي مضى على صدوره أكثر من عام،

ألا توزعونه على المكتبات، في العاصمة والمحافظات؟! ألا تبعثون به إلى أقطار العالم، حيث قرائي ينتظرونه بفارغ الصبر؟!»..

وثمة سؤال آخر يوجهه المؤلف: «لقد اشتريت، فوق نسخ الإهداء المخصصة لي عشرات من النسخ، ألم يساعد ذلك على نفاد النسخ المطبوعة؟!»..

إن كل الثقة المتبادلة بين المؤلف والناشر، لن تكون كافية لتبديد ماتشي به هذه التساؤلات من الشكوك والريب..

إن الناشر هنا، مهما كان على درجة من الأمانة والسمعة الحسنة، ومهما كانت العلاقة والثقة بينه وبين المؤلف وطيدة، ليحس أنه في موضع الاتهام؛ ماذا عساه يدافع عن نفسه؟!

أيقول للمؤلف: نعم! العالم العربي بقضه وقضيضه، وقرائه ومكتباته، ومؤسساته التعليمية ومراكزه الثقافية، لم يستطع أن يبتلع نسخك الألف وخمس المئة؟!

أينبهه إلى أن هؤلاء الذين يوهمونه أنهم متلهفون لمطالعة

كتابه، لم يجدوه في المكتبات، إنما هم مبتزون متسولون، يريدونه على أن يلبي تلهفهم، ويريحهم من عناء البحث عن كتابه في المكتبات، ومن مؤونة دفع ثمنه، فيقدمه لهم إهداءً ممهوراً بتوقيعه، بعد كلمة شكر منه لتلطفهم بقبوله؟

أيصدمه بإطلاعه على بطاقة المخزون التي لاتشير إلى بيع أكثر من خمسة نسخ طيلة العام؟

أو بإطلاعه على بطاقات المعارض الدولية للكتاب، التي لم تستهلك من كتابه غير النسخة النموذج، التي تلزمه إدارة المعرض بتقديمها إليها مجاناً بلا ثمن؟

أيقص عليه قصة أحد العارضين، الذي ابتلي بلصوص الكتب الذين يتسللون إلى بعض المعارض، فكان يلاحظ نقصاً في بعض الكتب المعروضة، ماعدا كتابٍ اشتهى أن يسطو عليه لصٌّ، فيخلّصه منه، لكثرة ماكرر من عرضه وإعادته؟!

أيواجهه بالحقيقة المرة، أن كتابه طاف بمعظم المكتبات، وأخذ مكانه في واجهاتها وعلى رفوفها، ثم أعيد إلى الناشر، بعد أن ملّ أصحاب المكتبات عرضه؟!

وفي بعض الأحيان، يندفع أحد المؤلفين - لظروف خاصة قد تعود إلى عدم عثوره على الناشر، أو لفرط ثقته برواج كتابه - فيقوم بدور (المؤلف والناشر والموزع) جميعاً، ويخوض تجربة التوزيع المريرة . .

يبدأ بالمؤسسات الرسمية والمراكز الثقافية، مقدماً نماذج كتابه، عارضاً مزاياه وإبداعه وحاجة الناس إليه، مؤملاً أن تلتهم طلبات هذه المراكز نسخ طبعته كلها، مخططاً للطبعة القادمة التي سيخصصها للجمهور، مطمئناً إلى الإطراء الأولي الذي يقابل به، وإلى الوعود السخية بالشراء، وماعليه إلا انتظار نتائج التقويم الذي ستقوم به اللجان . . إنه إجراء رسمي لابد منه . . يتابعه بفارغ الصبر، ثم تنهال عليه الصدمات متتالية : الميزانية لاتسمح بشراء أكثر من خمس نسخ . . المؤسسة استهلكت مخصصاتها للكتب هذا العام . . إلخ .

يطوف على المكتبات عارضاً بضاعته هنا وهناك، يشعر ببعض السعادة حين يقبل أحد منه بضعة نسخ بالأمانة تحت

التوزيع، ثم يعاني مايعاني عند قيامه بجولات التحصيل، التي غالباً مايؤوب منها بثمن بخس لبضعة نسخ بيعت، وركام من النسخ التي ذهبت نضارتها من طول الأمد، أو اهترأت من كثرة العرض، ماعساه يفعل بها، وهو يضيق ذرعاً بتخزين النسخ التي لم يكتب لها التوزيع بعد، فزاحمت أثاث المنزل، وأزعجت أهل البيت؟!.. إنها تجربة قاسية، ومغامرة فاشلة، سببها إهمال التخصص، فالمؤلف مؤلف، لايجوز أن يعطل موهبته، ويحمل هم النشر أو هم التوزيع..

من حق المؤلف أن يتطلع إلى رؤية مؤلَّفه في كل يد، وسماع الحديث عن كتابه على كل شفة، وأن يتوقع انتظار القراء بالطوابير لساعة صدور كتابه، فقد بذل فيه من الجهد، والسهر، والتفكير، وحرق الأعصاب، وتحسس حاجات مجتمعه العلمية والأدبية مايسوغ له هذا التوقع..

ولكن.. أليس من حق الناشر، أن يطلعه على الواقع المرير، الذي يجعلهما في خط مواجهة واحد، مع العزوف عن

القراءة، والاستهانة بالكتاب؟! ألم يغامر معه هو الآخر بماله وجهده وعرقه بحثاً عن مجالٍ لتسويقه دون جدوى؟!

أنا لا أتحدث عن (الناشر) الذي يأكل حقوق المؤلفين بالباطل، فيدلس عليهم عدد النسخ المطبوعة، ويحرمهم من استثمار جهودهم. . ولا أتحدث عن (المؤلف) المبتز الذي يتصيد ناشراً غراً يبتزه، فيلصق به شتى الاتهامات، ويتخذها ذريعة للتشهير . .

كما إنني لا أعمم حالة الكساد، ولا أنفي رواج بعض الكتب؛ المدرسية، أو شبه المدرسية (التي توصي بمطالعتها جهات مؤثرة)، أو كتب الأحداث الجارية، أو لمشاهير الكتاب . .

إنما أتحدث عن (الناشر الملتزم)، الذي يغامر بنشر عشرات من العناوين الجادة والضرورية، فلا ينجح منها ولا يروج غير بضعة عناوين . . كيف السبيل إلى تسويقها بشكل أفضل؟!

ثانياً: تسويق الكتاب

كم تمنيت - كلما رأيت سيارات توزيع السلع التموينية - أن يوزَّع الكتاب مثلها . . أن يحمل الناشر بسيارته أصناف الكتب، ويطوف بها على المكتبات، فيقدم لها الجديد من منشوراته، ويرمم نواقصها من كتبه . .

كم تمنيت - كلما شاهدت إعلاناً بالتلفاز عن مختلف السلع الاستهلاكية - أن يكون بينها إعلان ثقافي يغري الناس بشراء الكتاب، وتهاديه بينهم في المناسبات . . ويجعل الكتاب - أسوة بغيره من السلع - أغنية على شفاه الأطفال : (يا بابا بِودّي أقرأ) . . كثيراً ماتمنيت - كلما زارني مندوب مبيعات، يعرض أجهزة مكتبية - لو استطاع أن يحمل في حقيبته كتاباً يقنع الناس بشرائه، فيسهم، إلى جانب نجاحه التجاري بترويج ثقافة . .

لطالما تمنيت - كلما سمعت من صديق يستغرب ، وهو يطلع مصادفة على كتاب نفيس صدر منذ عشر سنين، أنه لم يسمع به - أن أطرُقَ كل باب لأعلم أهله بصدور كتاب جديد . .

ولكن. . ما كل مايتمنى المرء يدركه، و(الكتاب) شيء آخر غير السلع التموينية أو الاستهلاكية، أو هكذا ينظر إليه اقتصادياً واجتماعياً وشعبياً وإعلامياً. .

فهو لايدخل في الخطط الاقتصادية لأي بلد؛ سمواً به في أعين المخططين من أن يصبح سلعة تباع وتشترى، ولا يدخل في البرامج الإعلامية، صوناً له في نظر الإعلاميين من الاتجار، فهو ثقافة ترقى وتتسامى على التجارة، والمجتمع لم يعتد بعدُ أن يتلقى عرضاً لكتاب، أو يصغي إلى تعريف به، فالكتاب شأن رفيع عنده يخص العلماء، والمتعلمين، وليس شأناً شعبياً، أو حاجة تندرج في قوائم الاحتياجات المنزلية اليومية. .

أهو التقديس للكتاب، والتنزيه الذي يجعله فوق مستوى التداول، ويخرج به عن دائرة التعامل؟!

أم هو الامتهان للكتاب، والنظرة الدونية التي تقعد به عن أن يكون في مستوى التعامل والتداول والحاجة الملحة؟!

أياً ماكان الأمر، فإن جميع خطط (التسويق)، وقواعده

العلمية لاتنطبق على الكتاب، فلا (الإعلان التجاري) عنه، في مجتمعات العزوف عن القراءة، بقادر على إثارة الرغبة الملحة بشرائه، ولا توزيعُه على نطاق واسع بقادر على ترويجه . .

والناشر، من بين المنتجين، يحمل همَّ إيجاد السوق؛ همَّ إشاعة روح المطالعة، همَّ خلق المجتمع القارئ، إضافة إلى همِّه الأكبر في تخير منشوراته . . إن عليه أن يوجد (الطلب) قبل (العرض) . . ذلك هو قانون السوق؛ إذا سبق العرضُ الطلبَ، فإن ذلك سيهبط بقيمته إلى الحضيض، أما إذا سبق الطلبُ العرضَ فإن ذلك سيرفع من قيمته إلى الأوج، إذ إن من المتعارف عليه أن كل معروض مهان، وكل ممنوع (مطلوب وغير موجود) عزيز . .

وهذا مايجعل (الكتاب) في وضعه الراهن، سلعة تفتقر إلى الاحترام، لأنها غير مطلوبة، وإن عدم الاحترام للكتاب ليبدو في طريقة تعامل الناس معه، وكأنه مالٌ غير متقوم . .

فالمستعير لكتاب، لايفكر برده إلى صاحبه، إلا إذا ألحَّ

صاحبه في طلبه، ولو أنه استعار سلّماً أو ماعوناً أو شاكوشاً لبادر إلى رده فور انتهائه من استخدامه.

وبائع الكتب، يماطل في دفع قيمة الكتب التي طلبها من الناشر، ولا يدفعها له إلا بعد أن يعييه من طول الانتظار.. ولو أنه اشترى شعيراً أو ملابس أو قرطاسية لبادر إلى تسديد ثمنها في أجلها. أما إذا كانت الكتب مرسلة إليه بدون طلب، بقصد عرضها للبيع، فالويل كل الويل، وعلى الناشر أن يدفع ثمن غلطته، حتى لو بيعت كتبه بأكملها.

وإن من أفدح مظاهر عدم الاحترام للكتاب؛ استباحة حقوق الإبداع، بالسرقات الأدبية تارة، وبقرصنة النشر وتزوير الكتب تارة أخرى..

إنه سلعة تفتقر إلى (الاحترام)، وإلى أن يستعيد الكتاب احترامه، كيف يمكن أن نسوقه؟ ماهو واقع تسويق الكتاب؟ وماهي الاقتراحات والتوقعات؟!

ثالثاً: تسويق الكتاب في

في أقطار العالم العربي، توجد مؤسسات لتوزيع الدوريات، قد تضم إليها بعض كتيبات (الحدث الراهن) أو (الألغاز) و (ألف نكتة ونكتة)، ويجمع هذه المؤسسات اتحاد يطلق عليه اسم (اتحاد الموزعين العرب)، لكنَّ (الكتابَ)، لايزال بعيداً عن نشاطهم، ولم يَدُرْ في خلدهم أنه هو الآخر يحتاج إلى توزيع، وإذا كان للكتاب شأن خاص يختلف عن الدوريات، فإنه لايزال محروماً من أية مؤسسة للتوزيع تدرس حالته الخاصة، وتتعامل معه على ضوئها. . وما على الناشر إلا أن يقوم بنفسه بهذا الدور؛ دور (توزيع الكتاب)، على ضوء تجاربه الخاصة، واجتهاداته.

فلنمض مع الناشر في تجربته الخاصة: لقد صدر الكتاب، وانتهت بصدوره مرحلة طويلة من المعاناة في إعداد الكتاب، وتصحيح التجارب، وتوفير الورق، وتنفيذ الطباعة، وتمويل ذلك كله، لتبدأ مرحلة الأحلام وجني الثمار. . الكتاب نفيس، جديد في بابه، السوق بحاجة إليه، لن يحتاج إلى تخزينه،

السوق سيبتلعه خلال أيام، وما عليه إلا أن يقدم للمطبعة قائمة بالطلبات لتسليمها إلى أصحابها مباشرة. . يؤوب من السوق بخفي حنين. . صاحب المطبعة يلح عليه بسحب الكتاب. . فليبحث عن مخزن. . وتتوالى المعاناة والهموم بحثاً عن مخرج: أيوزعه على المكتبات بالأمانة (برسم البيع)، ويتحمل كل النتائج المحتملة، من المماطلة إلى المرتجعات التالفة ؟! أم يبحث عن مغامرٍ يشتري منه الطبعة بأكملها بثمن بخس؟ وأين هو المغامر المغرم بشراء الهموم؟ إنه يتمنى لو احتفظ بورقه أبيض، إذن لأمكنه أن يبيعه من فوره، أيبادل عليه ناشرين آخرين؛ كتباً بكتب؟ فتكثر لديه العناوين، وتتوسع أمامه فرص البيع، فإن كسد عنوان ، فلابد أن يروج آخر؟!

ويحمل عناوينه إلى الأسواق في الداخل والخارج، لا أحد يدفع الثمن نقداً، لابأس أن يكون التسديد آجلاً: ثلاثة أشهر، أربعة، خمسة. .

ثم تبدأ متاعب التحصيل: كشف شهري بالحساب، ثم مطالبات بريدية رقيقة لاتلقى أي رد، ثم مكالمات هاتفية

فاشلة. . لابد من السفر. . ونفقات السفر، ومشقات السفر، وذل السؤال. .

ستقول لي: ماهذه الصور المزرية لتوزيع الكتاب؟ وماهذا التشاؤم؟

وأقول: عذري أنني أكتب تحت عنوان (هموم ناشر عربي) إنها مهنة المتاعب التي تحتاج - كما قال المجربون - إلى مال قارون، وخزائن يوسف، وعمر نوح، وصبر أيوب.

وماذا تريد لواقع (توزيع الكتاب) أن يكون؟ أمام:

عزوف القارئ عنه. .

وامتناع الإعلام عن التعريف به. .

وانعدام مؤسسات التوزيع له. .

ومع ذلك، فإني لست متشائماً، ولا أحب التشاؤم.

ولست سلبياً، إنما أعرض (الصورة السالبة السوداء)، لكي نقوم جميعاً بتنظيفها من الشوائب (روتوش)، كي نحصل بعكسها على (الصورة الإيجابية البيضاء).

رابعاً: تسويق الكتاب

شكوت إلى خبيرٍ في (التسويق)، غياب مؤسسات التوزيع، فقال: وزع أنت، ولا تنتظر قيام المؤسسات.

وشكوت إليه عزوف القارئ، فقال: اجعل الكتاب في أنفه، أمام سمعه وبصره. قربه إليه ويسره له.

وشكوت إليه غياب (التعريف بالكتاب)، في وسائل الإعلام، فقال لي: لن تعدم طريقة للتعريف به، بوسائلك الخاصة.

لقد زودتني إيجابية هذا الخبير بكثير من الأمل، ووطدت ثقتي بالطاقة البشرية وقدرتها الخارقة على تجاوز الصعاب، متى اقترنت إرادتها بالعزيمة واتسمت بالفعالية، فكانت هذه المقترحات:

أ - عند صدور كتاب جديد، عليك أولاً أن تهتم بالإعلان عنه، والإعلام بصدوره، بكل الطرق المتاحة:

آ ـ أبشور (بروشور) يعرف بالكتاب، ويوزع على أوسع نطاق، حسب قائمةٍ للإرسال الدائم (Mailing list)، يجب أن تهتم بإعدادها، وتنميتها لديك، وتزويدها بكل عنوان يصل إليك.

ب ـ لوحات جدارية (بوستر)، تعد حسب طبيعة وأهمية الكتاب، وتوزع على المكتبات ومراكز البيع.

جـ ـ تقديم نماذج مجانية للدوريات ووسائل الإعلام التي تهتم بالتعريف بالكتاب.

د ـ إثارة المناقشات حول موضوع الكتاب، بالقراءات الصحفية، والندوات الثقافية، سواءً أكانت نقداً له أو إعجاباً به، فالمهم وضعه في بؤرة الضوء، ودائرة الاهتمام..

٢ ـ التوزيع بالأمانة برسم البيع : بالرغم من المساوئ والنقد الذي يكتنف هذه الطريقة، فإنها ستكون مجدية ـ في نظري ـ بالشروط التالية :

آ ـ أن يكون محدوداً من حيث الكمية والمدة، وذلك بتوزيع نسخ قليلة لمدة محدودة يسحب حتماً بانتهائها، والغرض من ذلك هو الإعلام بصدور الكتاب، واختبار السوق به، وتشجيع مراكز البيع على طلبه في حالة رواجه.

ب ـ أو أن تكون ضمن خطة توزيع مستمرة وشاملة، يقوم الموزع على ضوئها بزيارات دورية ومنتظمة لمراكز البيع، ويحصي النسخ المبيعة من الكتاب الموزَّع، فيعطيه بدلاً منها بيعاً قطعياً يستلم ثمنه نقداً، وتبقى فاتورة الأمانة على حالها إلى أن يقرر الموزع تصفيتها نهائياً.

٣ ـ البيع القطعي لمراكز البيع (مكتبات وغيرها): وعيب هذه الطريقة أن الطلب فيها متروك لرغبة ومزاج هذه المراكز، التي تهتم بالرائج من كتب الناشر، وتترك الكتاب الأقل رواجاً، عرضة للكساد بسبب عدم العرض. ويمكن أن تكون مثمرة بشروط:

آ ـ إجراء مسح شامل لمراكز البيع في المدينة.

ب ـ تنظيم زيارات دورية لهذه المراكز، يقوم بها مندوب للناشر، خبير بالتسويق، يحسن العرض، وتقدير حاجات كل مركز حسب طبيعته.

جـ ـ تقديم تسهيلات للتشجيع على شراء الكتب.

د ـ المتابعة والاستمرار هما الضمان الأفضل للتحصيل، وذلك مايشعر مركز البيع بحاجته إليك، وأن مطله أو تقصيره بالدفع، قد يحرمه من التزود الدائم بكل جديد. وأما الانقطاع وفوضى المتابعة فإنه سيترك أثراً سلبياً جداً على العلاقة مع الناشر ويضعف الثقة به.

هـ ـ توسيع نطاق التوزيع خارج المدينة في المحافظات، وخارج القطر في جميع أنحاء العالم العربي والخارجي، بنفس الشروط، وخاصة تنظيم الزيارات الدورية، والتواصل الدائم بالمراسلات والإعلام عن كل جديد.

٤ً ـ البيع الشخصي خارج مراكز بيع الكتاب، للوصول إلى شريحة أعمق في المجتمع، لم تعتد ارتياد المكتبات. ومن

صور هذه الطريقة، قيام مندوبي مبيعات، تخصص لهم نسبة مجزية من قيمة المبيعات، بزيارات للأفراد في مكاتبهم ومنازلهم، أو في معاهدهم وجامعاتهم، وعرض الكتب عليهم. وعلى هؤلاء المندوبين أن يتوقعوا سلفاً كثيراً من الرفض لهم، والاستخفاف بهم، لكن بمرور الزمن، وحسن التصرف من قبلهم سوف يعتاد الناس هذا الأسلوب.

ومن صور هذه الطريقة أيضاً تنظيم زيارات وإقامة علاقات مع المؤسسات الثقافية، والإدارات ذات الاهتمام بالكتاب المتخصص.

وفي هذا النطاق أيضاً يمكن الاتصال بمحلات بيع التحف والهدايا لإدخال الكتاب بين هدايا الكبار، وبمحلات ألعاب الأطفال، لعرض كتب الأطفال إلى جانب الألعاب.

٥ - ابتكار طرق جديدة من أجل إيصال الكتاب إلى القارئ (المعتاد أو المحتمل)، وذلك كإنشاء خدمة توزيع الكتاب

بالبريد، أو إنشاء نوادي الكتاب، أو تقديم جوائز على مسابقات تتعلق بالكتاب، أو أي طريقة توثق الصلة بين الناشر والقارئ مباشرة.

٦ـ المشاركة بالمعارض العربية والدولية للكتاب، بقصد التعريف والتواصل المباشر مع القارئ للتعرف على اتجاهاته، وإقامة المعارض الخاصة لهذا الغرض.

هموم ناشر عربي

أحلام وآمال

(١)

إثر صدمة عنيفة، من صدمات المهنة، أخذتني غفوة، فرأيت فيما يراه النائم؛ ثلة من الناشرين، عليهم الهيبة والوقار، تحسبهم غضاباً من كثرة الجد والاهتمام البادين على وجوههم، قد ركبوا ثبج البحر، على متن سفينة ذات بهو واسع، وزعت فيه الأرائك على نحو تتلاقى فيه وجوه الجمع، دون تدابر، وترنو أنظارهم من وراء الوجوه إلى صفحة البحر التي اكتست؛ من زرقة الماء، و من ظلمة الليل، ومن أضواء خافتة انعكست عليها من قمر يوشك أن يكتمل بدراً، ومن بصيص أنوار بعيدة تنبعث من الشاطئ الذي أخذ يبتعد. . . اكتست ألواناً هادئة حالمة؛ تزيدها الجدران الزجاجية للسفينة، ألقاً يخفف من وطأة الجد البادي على الوجوه، ويُلطف من غلواء الهموم التي تعتلج في صدور القوم.

ودون مقدمات، ولا مرطبات، نهض كبيرهم، يتأبط ملفاً ضخماً، فوقف فيهم خطيباً، لم يبدأ كلامه بترحيب ولا مجاملة، بل صاح فيهم بكلمات هادرة منذرة: ياقومُ إن الخطب جلل، وإن المخاطر محدقة بكم، وها أنتم في لجة البحر، لا فكاك لكم، ولاعودة إلى شاطئ الأمان، إلا بعد أن تتدبروا أموركم، وتعالجوا مشكلاتكم، وتتوافقوا على الحلول، وتتواثقوا على الالتزام بها، وعلى أن تكونوا صفاً واحداً، تأخذون على يد الظالم، كما تأخذون بيد المظلوم، حتى يعود لهذه المهنة شرفها، ومجدها، وكرامتها التي ضاعت أو أوشكت.

كانت كلمات الخطيب تعبر عما يخالج الجميع من هموم، وإشفاق على مهنة الكتاب، فما أن سمعوها حتى أقبلوا على ملفاتهم يقلبونها استعداداً لجولة حامية الوطيس.

غير أن ناشراً منهم يتمتع بروح دعابة، وشيء من الشاعرية، قام فيهم يقول: ياصحب! لايصلح لكم أن تبدؤوا مناقشاتكم بكل هذه العصبية والتجهم، فاسمحوا لي أن أتولى تخفيف حدة

التوتر، كي نكون أقدر على المناقشة بموضوعية وحياد، فوافقوه على مضض، ومضى يحدثهم بنكات من واقع المهنة حيناً، وينشدهم الشعر حيناً آخر، حتى هدأت أعصابهم . .

(٢)

وفي هدوء الأعصاب وهدأة الليل، مع نسمات البحر، ودغدغة الشعر . . استسلمتُ - وسط حلمي الأول - إلى غفوة، حجبتني عما دار بين الناشرين في مؤتمرهم البحري، بعد أن هدأت زوبعتهم . . وقادتني إلى حلم جديد، رأيتني فيه على متن طائرة تعود بي من بلد بعيد شاركت به في معرض للكتاب، وحولي كوكبة من الناشرين العائدين . . ما أن اخترقت طائرتهم السحب، واستقرت على ارتفاعها المطلوب، حتى علت أصواتهم من قدامُ ومن خلف، وعن يمين وشمال . . تبينت منها هذه اللقطات :

ناشر : أرأيتم إلى الصورة التي رسموها لنا في بطاقة الدعوة إلى المعرض؟! جمهرة غفيرة من الزوار . . فرصة نادرة

للتعارف.. آفاق جديدة.. عقود نشر مشترك.. طلبات رسمية.. صفقات.. نشاطات ثقافية.. برامج ترفيهية.. لم أر شيئاً من ذلك كله..

آخر : أما أنا فقد قصم ظهري ترتيب الكتب على الحوامل (الستاندات) المهترئة، لا أكاد أجلس بانتظارزائر متلهف باحث عن جديد الكتب، حتى أنهض على صوت هذه الكتب تتهاوى إلى الأرض، من جراء لكمة أصابتها من الخلف..

ثالث : إن هذه ليست هي المشكلة.. المشكلة الحقيقية تكمن في نهاية المعرض، بعدَ انتهاء وقته المقرر وتمديداته.. فخلال ساعات ينبغي أن تعيد الباقي من كتبك إلى كراتين تلمها من هنا وهناك، وأن تتحاور مع تجار اللحظة الأخيرة، الذين يستغلون لحظة الضعف هذه، فيفرضون شروطهم القاسية، ويعرضون عروضهم المغرية؛ وأكثرها إغراءً أن يتكرموا بإيداع الكتب عندهم أمانة، قيد البيع، يحاسبونك بما بيع منها ذات معرض قادم.

ناشر ذكي : لقد بعت ماتبقى من كتبي بثمن بخس، فخلصت نفسي من همٍّ كبير، والعوض على الله.

ناشر حكيم : إنني أحمد الله أنني لم أحمل معي غير القليل من العناوين، بكميات قليلة، تكفي للعرض.. صحيح أن كل مابعته لايفي بعُشْر نفقات المشاركة وبطاقة السفر والإقامة.. لكن المعرض بالنسبة لي ليس سوقاً، بل هو علاقات، وإعلام، وعرض.. فما أنا بنادم.

ووسط ضجيج المناقشات، وهدير الطائرة، في حُلمي الباطن، سرح بي الخيال إلى (معرض فرانكفورت)، حيث طلبتُ موعداً مع مدير إدارة حقوق التأليف في مؤسسة أكسفورد، فلم أجد غير فجوة لمدة خمس دقائق بين موعدين، إذ كان جدول مواعيده ممتلئاً طيلة أيام المعرض.

(٣)

ومن الخيال الشارد، إلى غفوة جديدة في باطن غفوتين، أسلمتني إلى حُلْم جديد هو (الثالث) في مسلسل أحلامي، وجدتني فيه، ضمن مكتبة شهيرة في بلد عربي كبير، رحَّبَ صاحبها بي، وهو صديق لي قديم وملتزم؛ وما لبث أن نادى موظفاً عنده ليأتينا، مع الشراب الضروري لإطفاء حمارَّة القيظ، بسيل من الكتب المزورة؛ أزواجاً؛ نسخةً أصلية وأخرى مزورة من كل كتاب، وبادرني بالقول: ماذا تريدنا أن نفعل؟ كيف نستطيع أن نبقى في السوق، ونحن نحتفظ بأمانتنا؟ الكتاب المزور معروض بثلثي قيمة الكتاب الأصلي، والقارئ يطلب الأرخص!!

قلت: إذا جاءك لص بحلي أو أثاث مسروق يعرضه عليك بثلثي قيمته، فهل رخص سعره يسوغ لك شراءه، وأنت تعلم مصدره وأنه مسروق؟!

واحتدم النقاش، وانضم إلينا فيه، زوار للمكتبة من القراء.

قلت لهم جميعاً: إن التعامل مع المزوِّر حرام، وشراء الكتاب المزوَّر سحت، وكل متعامل في هذا الحرام وهويعلمه من منتج ووسيط ومستهلك، شريك في الإثم..

وبينا نحن في نقاش، إذ دخل علينا زميل ناشر، يقص علينا قصته المحزنة التالية: لي على المكتبة (الفلانية) ذمة مستحقة، أخبرت صاحبها أنني قادم إليه لاستلامها، فوعدني خيراً، وفوجئت به يعتذر إلي؛ أنَّ فلاناً (المزوِّر) قد جاءه أمس على عجل، يتقاضاه ديناً عاجلاً (قيمة كتب مزورة)، فأعطاه ماكان قد ادخره لي، على أمل أن يتدبر أمري فيما بعد..

قال أحد السامعين: لقد سبقك بها عكاشة..

قال آخر: الجمعة لمن سبق..

قال له صاحبه، يرثي لحاله: أصبحت الأفضلية في زماننا للمزورين..

قال لصاحبه وهو يحاوره: ماذا تشير عليَّ أن أفعل؟ أأترك المهنة لأربابها الجدد الحاذقين؟ أم أحذو حذوهم، وآكل حقوق

المؤلفين والناشرين؟ أم أنتظر حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين؟!

(٤)

وانتحلت عذراً، وتركتهم في حيرتهم يتخبطون، وأسرعت إلى غرفتي.. واستلقيت على سريري، وكنت قد استبد بي التعب، وأثقلتني الهموم، فأسلمت نفسي إلى نومة عميقة، خرجت فيها من حلمي السابق، ومالبثت أن دخلت في حُلْم جديد هوالرابع في سلسلة أحلامي المتداخلة، تداخلاً يبعد المسافة بينها وبين اليقظة، ويكثر من الأبواب الموصدة دونها.. حتى ليحار المرء كيف يمكن لهذا النائم نومة في جوف نومة في جوف ثالثة في جوف أخرى.. كيف يمكن له أن يعود إلى يقظته، ويستعيد رشده؟! هل سيعود أدراجه في رحلة العودة من كل نومة إلى سابقتها، حتى يخرج منها جميعاً كما دخل فيها من الباب الأول؟! أم أن في نومته الأخيرة باباً خلفياً سيقذف به خارج عالم الأحلام؟!

المهم أنني في حلمي (الرابع)، وجدتني في (منتدى ثقافي)، في بلد عربي، في جلسة ودية ضمت عدداً من المؤلفين والناشرين؛ دار بينهم الحوار التالي :

مؤلف : إنكم - مع الأسف - تنشرون عظامنا، وتستثمرون عرقنا، وتلقون إلينا بالفتات . .

مؤلف آخر : هذا صحيح، فهل رأيت في حياتك مؤلفاً استغنى من كتابته؟ أو ناشراً شقي وافتقر بمهنته؟

مؤلف ثالث : إن أحدهم ليغص عند كل دفعة لمؤلف، وبعضهم يسوف ويماطل، وآخرون يأكلون حقوق المؤلفين . . ولا يبالون . .

ناشر : اتقوا الله ـ معشر المؤلفين ـ واجتنبوا كثيراً من الظن، إن بعض الظن إثم .

ناشر ثان : أيظن أحدكم، إذا ألف كتاباً، أن الناس تقف له بالطوابير، تنتظر صدوره بلهفة، مايكاد يصدر حتى ينفد، وينام الناشر على حصيلته، ويحرم المؤلف من ثمرته؟

ناشر ثالث : ألا ترون إلى مستودعات الناشرين، تتكدس فيها الكتب، وتتوالد؛ كتاباً يلد آخر، ومستودعاً يلد مستودعاً. . لايكاد الناشر يجتمع له بعض المال، حتى تكون بضعة مخطوطات معدة للنشر، تنتظر التمويل، فتأكل في وجبة واحدة، ماتجمع لدى الناشر من أبواب متفرقة. .

ناشر آخر : هل رأيتم ناشراً أقام المباني الشاهقة، وركب السيارات الفارهة، إلا الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف؟! إن مهنتنا تحتاج إلى مال (قارون)، وصبر (أيوب)، وخزائن (يوسف) ، وعمر نوح.

ثم احتدم النقاش، وساد هرج ومرج، وتبادل المؤلفون والناشرون الاتهامات. . وفي خلال ذلك جاء من أقصى القاعة رجل يسعى، وصاح بهم:

مهلاً . . إن في كلٍّ من المؤلفين والناشرين محسناً ومسيئاً، لكنني أؤكد لكم أن كلا الطرفين مظلوم. . إن الساحة الثقافية العربية محدودة وضيقة، ومهما بالغ الناشر في مكافأة المؤلف

على عمله، فإنه لن يتمكن مؤلف من العيش على ثمرات فكره.. فابحثوا عن جذور المشكلة، ولاتستبد بكم السطحية حتى تختلفوا على الظواهر والأعراض.

لقد استطاع هذا الرجل الحكيم أن يطفئ نار الفتنة، وأن ينهي الصخب والجدال الدائر، وأن يعيد القوم إلى صوابهم، يتناقشون في هدوء حول أزمة الكتاب، وتشجيع الناس على القراءة...

(٥)

وفي ظل هذا الحوار الهادئ، وعلى الأريكة الوثيرة في هذا المنتدى الثقافي الفخم، أخذتني نومة، أسلمتني إلى حُلْم جديد؛ هو (الخامس) ضمن مسلسل أحلام النشر...

فرأيتني - فيما يراه النائم المستغرق - أعبر حدوداً بين بلدين عربيين، داخل سيارة أجرة، ترافقني فيها أسرة مؤلفةمن أبوين في ربيع العمر، معهما بنت وصبي، هما ثمرة زواجهما القريب العهد؛ البنت في الرابعة قد دخلت لتوها روضةً للأطفال،

والولد في بداية عامه الثاني، لم تتزن خطواته الأولى ولم تتضح كلماته بعد.

ويبدو أن السيدة (الأم)، قد أكثرت من مشترياتها للأولاد وللبيت، وكانت تتهيب الموقف الذي ينتظرها أمام موظفي الجمارك، وتتحدث مع السائق عن مخاوفها طيلة الطريق، غير أن مخاوفها كلها قد تبددت، عندما دخلت السيارة مركز الجمارك على الحدود، وتنفست الصعداء، عندما رأت اهتمام موظفي الجمارك، قد توجه نحو بضعة كتب كانت في حقيبتي، واستدعيت للمثول أمامهم، حيث دار بيننا الحوار التالي:

- ماذا تعمل؟

- ناشراً.

- ماذا؟

- (عرفت أنه لم يفهم ماهذه المهنة فزدته إيضاحاً): تاجر كتب.

- لذلك جئتَ بهذه الكتب إذن؟ للتجارة!

ـ إن هذه ليست كتباً، بل هي تجارب طباعية.

ـ أين موافقة الرقابة؟

ـ إن هذه أوراق شخصية لاتحتاج إلى موافقة رقابة.

ـ لابد من حجزها، وتنظيم ضبط بها.

ولم تنفع كل محاولاتي للإقناع، وقضينا بعض الوقت في إجراءات الحجز، عدت بعدها أتصبب عرقاً، خجلاً مما سببته للأسرة من تأخير، ورحت أعتذر، فأجابت السيدة: لا عليك، لقد شغلتهم بكتبك عن حقيبتنا ؛ مشكوراً. وأنصحك أن تستغني عن هذه الأوراق المحجوزة، فإن قريباً لي قضى وقتاً طويلاً ومشاوير عديدة حتى تمكن من استلام كتبه التي حجزت في موقف مماثل.

ومنذ ذلك الحين، وأنا أتجنب أن أحمل في سفري كتاباً، حتى لا أتعرض لهذا الموقف المخجل.

(٦)

ومضت بنا السيارة تتهادى على طريق متعرج في أصيل يوم ربيعي، معتدل الحرارة، رقيق النسمات، فما لبثت أن استسلمت لغفوة أنستني خزي اصطحابي (الكتاب) في سفري، وجهلي بخطورة هذه الفعلة التي اقترفتها..

ما أحلى عالم الأحلام، الذي يسرع إلى تبديل اللوحة، ونقلك إلى جو آخر، ذي موضوع آخر، وربما طار بك إلى بلد آخر.. إنه نعمة كبرى من نعم الله الكثيرة على الإنسان.. ولو أن الإنسان استمر على حال واحدة، يعاني هماً واحداً، يحيط به من بين يديه ومن خلفه لقضى نحبه هماً وغماً، لكن الله تعالى الذي كرم الإنسان، وأسجد له ملائكته، كان أرحم به من أن يسلمه إلى الهموم تتناوشه، فوهبه نعمة النوم ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ [النبأ: ٧٨/ ٩] كي يقطعه عن همومه ويريحه منها، ولو إلى حين..

واستبد بي النوم في السيارة، وهي تتهادى بي في منعطفات

ذات اليمين وذات الشمال، حتى رأيت رؤياي (السادسة) التي حملتني إلى أمسيةٍ عائلية، في بيت ريفي، في يوم عطلة، جمعت شمل الأقرباء بنين وبنات، صغاراً وكباراً، شباباً وكهولاً؛ مالبثوا أن انفرزوا بشكل عفوي، وانتحى كل منهم في ركن؛ الصغار توجهوا إلى الحديقة، والشبان ذهبوا يتمشون في الشارع، والنسوة تحلقن في الشرفة لثرثرتهن، وكنت بين الكهول أشاركهم في أحاديثهم التي تناولت أحوال الصحة، والجو، والسيارات، والمباني، والأسواق، وأسعار العملات، وأخبار السياسة العالمية، وكل شيء، عدا الكتاب، وشؤون الفكر والثقافة . .

كنا أحد عشر . . ولم نكن كلنا من التجار وأرباب الحرف، بل كان فينا الطبيب والمهندس والأستاذ في الجامعة . .

وخطرت لي فكرة؛ أن أقوم باستطلاعٍ، كالذي تقوم به الصحف الأجنبية، لمعرفة عدد القراء، واهتماماتهم، أجريه على هذه (العينة)، التي تمثل - إلى حد - شرائح المجتمع، وبدأت بطرح أسئلتي؛ أتخولهم بها، وأتلطف بطرحها، مخافة

الإملال، لقد أصدرت (عالم المعرفة) كتاباً عن (العرب وعصر المعلومات) يتضمن أفكاراً جديدة ومهمة جداً، هل اطلعتم عليه؟ . . . أبداً.

المكتبة (الفلانية)، تعرض باستمرار جديداً في عالم (الأفكار) وتعنى بتصنيف عرضها للكتب، حسب موضوعاتها، هل لاحظتم ذلك. . أبداً وتوالت أسئلتي على هذا النحو، وتمنيت أن أتلقى جواباً إيجابياً ولو واحداً، لكي أستطيع به أن أضع نسباً مئوية لاستطلاع الرأي الذي أقوم به حول (القراءة). . ذلك أن رقم الصفر حين تنسبه إلى أي رقم لايأتيك بغير الصفر. .

وقد لاحظت سيدة، خيبة أملي، ويبدو أن أسئلتي قد لفتت انتباهها، وأنها تشاطرني اهتماماتي، فتركت زمرة النساء، وانضمت إلينا، تحدثنا عن مقروءاتها الأخيرة؛ حديث (قارئ نهم)، مطلع على كل جديد، يرقب حركة الفكر، والثقافة، والكتاب. . فأعادت إلي نفسي، وثقتي بأن (الخير) (والوعي) لاينعدم، وربما تأتي به (المرأة)، إن فقده (الرجل). .

(٧)

ودغدغتني (المفاجأة)، والجو الرخيم، والصمت الذي خيم على الصحب، بعد مغادرة (السيدة القارئة) عائدة إلى صويحباتها. . فاستسلمت إلى نومة أسلمتني بدورها إلى حلمي (السابع) في مسلسل أطلقت عليه اسم (أحلام ناشر) ، فماذا رأيت؟ .

رأيتني هذه المرة في (بيتي) أمام التلفاز، وبين يديَّ ثلة من الأحفاد، تتراوح أعمارهم بين السنة ، والسنوات الأربعة، يتنادون؛ أن تعالوا إلى الإعلانات، ومالبثت أن رأيتهم يتمايلون مع النغمات ويرددون جُمَلها بتجاوب واهتمام بالغين، لم أرهما منهم إزاء بقية البرامج. . حتى أفلام الكرتون. . لكن الذي أدهشني أكثر هو موضوعات هذه الإعلانات؛ كان الإعلان الأول، يردد أنشودة للشاعر الموهوب؛ (سليمان العيسى) نظمها في قصة (الأرانب الصغيرة) من سلسلة (مذكرات العم صبور) :

يمنعني بابا

تمنعني ماما

أن ألعب، أن أعدو

كالأرنب في الحقل الأخضر

وكان إعلان آخر، عن (لعبة القراءة)، وثالث عن (لغتنا الجميلة)، ورابع. . وخامس. . وانتهت فقرة الإعلان. . . وصرخ الأحفاد، بأصوات متداخلة، بعضهم يلثغ، وبعضهم لايكاد يبين: (جدو ! اشتر لي لعبة القراءة). . الأرانب الصغيرة. . . أحب أن أعرف. . . وبدأت أتململ تحت وطأة (الأحلام) التي أثقلني حَمْلها. . إذ لم تكن منجّمة على فترات يتخللها الصحو والاستيقاظ. . . وكذلك لم تكن أحْلاماً متجاورات؛ مثل أشجار جنةٍ تسقى بماء واحد ويفضل بعضها على بعض في الأُكل. . إنما كانت أحلاماً متتابعة، متداخلة. . حُلماً في جوف حُلْم في جوف آخر. . أستعير لها تعبيراً رياضياً. . إذ كانت على التسلسل، لا على التفرع. . وشتان. . ومن هنا جاءت وطأتها وثقلها. .

* * *

ورحت أبحث عن مخرج يعيدني إلى أرض الواقع . . وأتلمس طريقاً يوصلني إلى شاطئ اليقظة . . نظرت أمامي فوجدت أن الطريق يمعن في التضيُّق والظلام، حتى تكاد لاتبصر له بصيص فوهة من نور . . فلم أجد بداً من العودة من حيث أتيت . . أرفع عني حجب النوم، وشغافات الأحلام . . شغافاً إثر شغاف . .

عدت إلى الأحفاد فوجدتهم يلحون على طلباتهم من (البسكويت) و(الشوكولا) و(الغازوز) . . بل وحتى (كوالا . . بتلمع لحالها) . . كما سمعوا من التليفزيون .

ونضوت عني شغافاً، فوجدت (السمار) قد تفرقوا في حلقات بعضهم حول طاولة الزهر، وآخرون في حلقة (طرنيب)، والشباب يتداولون آخر النكات، والسيدة الفاضلة (القارئة) ترمق الجميع بنظرات تنبض بالحرقة والإشفاق .

واخترقت حجبي نحو مركز الحدود، لأجد القوم منهمكين في دفع الرسوم الجمركية على ما اصطحبوه من سلع شتى، ليس

بينها كتاب ؛ لا لأنه معفى من الرسوم الجمركية ، ولكن تجنباً للقيل والقال وكثرة السؤال .

ثم مضيت أخرق حجب أحلامي . . واحداً تلو الآخر ، في انفعالات سابح أوغل في البحر ، فهو ينشد الشاطئ . . وتوق مسافرٍ طال به العهد ، فهو يتعجل لحظة الوصول ، ولا يبالي بمشاهد الطريق ، إنما يلمحها لمح غير مكترث . .

مررت في طريقي على المركز الثقافي . . وسمعت من بعيد أصوات المؤلفين والناشرين ترتفع فيما يشبه المشادة . .

وعرجت في طريق عودتي على المكتبة . . فلمحت الكتب المزورة قد استقرت على رفوفها ، أخذاً بالقاعدة المالية (العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من التداول) .

ثم طرقت أذني حسرات ركب العارضين العائدين من المعرض . . يتذكرون أمجاد المعارض ، التي كان الناشرون فيها موضع التكريم ، والكتاب ، موضع الاهتمام والاحترام . .

وبدا لي أنني اقتربت، حين وصلت إلى (السفينة) التي كانت مهد (حلمي الأول)، فتوقفت فيها قليلاً، قبل أن أغادر (عالم الأحلام)، وكل مافيه من سعادة وشقاء، فوجدت الناشرين قد طووا ملفاتهم، وأقبلوا على مائدة مفتوحة، يملؤون أطباقهم مما تشتهيه الأنفس ويلذ الأعين، من مقبلاتها ومشهياتها وفواكهها وحلوياتها، وتوزعوا وقوفاً في أبهاء السفينة الفخمة التي كانت ماتزال بكراً، قد نزلت لتوها إلى البحر، وراحوا يلتهمون بشرهٍ أطباقهم، كلما فرغت بدّلوهم أطباقاً غيرها . . . وكانت فرقةٌ راقصةٌ قد اقتحمت عليهم (خلوتهم)، التي كانت بمنزلة مؤتمر عمل للبحث عن حلول ناجعة لأزمة النشر والكتاب المستحكمة، فراحت تعرض عليهم فنوناً من الرقص الشرقي المتخلع، على أنغام موسيقى شرقية حالمة، لتخفف عنهم هموم المهنة، وعناء التفكير فيها.

وبلغت السفينة الشاطئ . . وألقت مراسيها . . وهاهم الناشرون الذين دخلوها مثقلين بالهموم، عازفين عن كل شيء

سوى معالجة مشكلاتهم. . يغادرونها الآن. . مرتاحي البال، ممتلئي البطون. . مهطعين إلى أسرِتّهم ليستقبلوا فيها أحلامهم المنتظرة. .

. . وبلغت سفينة أحلامي الشاطئ. . وألقت مراسيها. . لتلفظني إلى عالم الواقع. . كي أواجه من جديد الهموم والمتاعب. . وأعمل مع العاملين على إعادة الاحترام إلى صناعة الكتاب، والذي ينطلق - في نظري - من (القارئ الواعي)، الذي هو العنصر الأساسي؛ المؤثر والفعال، في إيجاد (المؤلف المبدع) و(الناشر الملتزم) و (المجتمع القارئ)، فعندي أن (القراءة. . أولاً).

١ً ـ أن يدخل (الكتاب) في قائمة الاحتياجات (اليومية) المنزلية لرب الأسرة، أسوة بالرغيف والكساء.

٢ً ـ أن يصبح (الكتاب) أول مانفكر في اصطحابه معنا، لقضاء وقت انتظار إلزامي؛ في واسطة نقل، أو في عيادة طبيب، أو في يوم عطلة، أو للاستمتاع برحلة.

٣ً ـ أن يكون (الكتاب) أحد اختياراتنا للإهداء في (المناسبات)، إلى جانب: (الحلوى) التي سرعان ماتذوب، وباقة (الورد)، التي ماتلبث أن تذبل.

٤ً ـ أن تتصدر أفكار (الكتاب) أحاديثنا في لقاءاتنا ومنتدياتنا، بدلاً عن أحاديثنا عن الطقس، والصحة، وأحوال الأسواق، وآخر المعروضات الاستهلاكية.

٥ً ـ أن يرتفع عدد النسخ المطبوعة من (الكتاب)، ليغطي نسبة معقولة من عدد السكان.

٦ - أن يستطيع مؤلف (الكتاب) أن يعيش حياة كريمة من دخل (مؤلفاته) .

٧ - أن يستعيد (الكتاب) احترامه ، فلا يسطو مؤلف على أفكار مؤلف آخر ، ولا يعتدي (ناشر) على حق ناشر آخر ، ولا يماطل أحد في دفع قيمة كتب (اشتراها) ، أو ردّ كتاب (استعاره) .

٨ - أن نرى في مجتمعنا (القارئ النهم) ، الذي يلتهم (الكتاب الجديد)؛ يقرؤه، ويقومه، وينقده، ويقول : (هل من مزيد ؟) .

تنبيه

ليس لهذه الدراسة طابع البحث العلمي (الأكاديمي)، ولا هي تهدف إلى ذلك.

إنما هي حصيلة تجارب السنين، والمعاناة الطويلة؛ سأكون سعيداً جداً، إن هي أثارت كوامن الشجون لدى المعنين يشؤون الكتاب من مهنيين ومبدعين وقراء، وإن هي دفعتهم إلى مزيد من التأمل والدراسة الجادة، التي تعمق أو تضيف أفكاراً جديدة تستطيع أن تسهم في حل أزمة الكتاب، وتشجيع الإبداع، وتنشيط القراءة.

كتابي فيه بستاني وروحي

ومنه سمير نفسي والنديمُ

يجالسني وكلُّ الناس حرب

وَيُسْلِيني إذا عَرَت الهمومُ

ويحيي لي تصفحُ صفحتيْه

كرامَ الناس إن فُقِدَ الكريمُ

إذا اعوجَّت على طريق قومي

فلي فيه طريق مستقيمُ

المراجع

- سلسلة (سنن تغيير النفس والمجتمع): جودت سعيد - دار الفكر دمشق.

- سلسلة (مشكلات الحضارة): مالك بن نبي - دار الفكر دمشق.

- حق الابتكار في الفقه الإسلامي: الدكتور فتحي الدريني - الشركة المتحدة - دمشق.

شرعة حقوق القارئ

ان الكتب هي مكمن القوة الروحية

للبشرية ، والمصدر الذي يهيئ

البشرية لمواجهة المستقبل بثقة .

الكتب حاجة والكتب تستحق

اهتماماً ودعماً عالميين .

بيان (شرعة حقوق القارئ)

معرض فرانكفورت ١٩٩٢